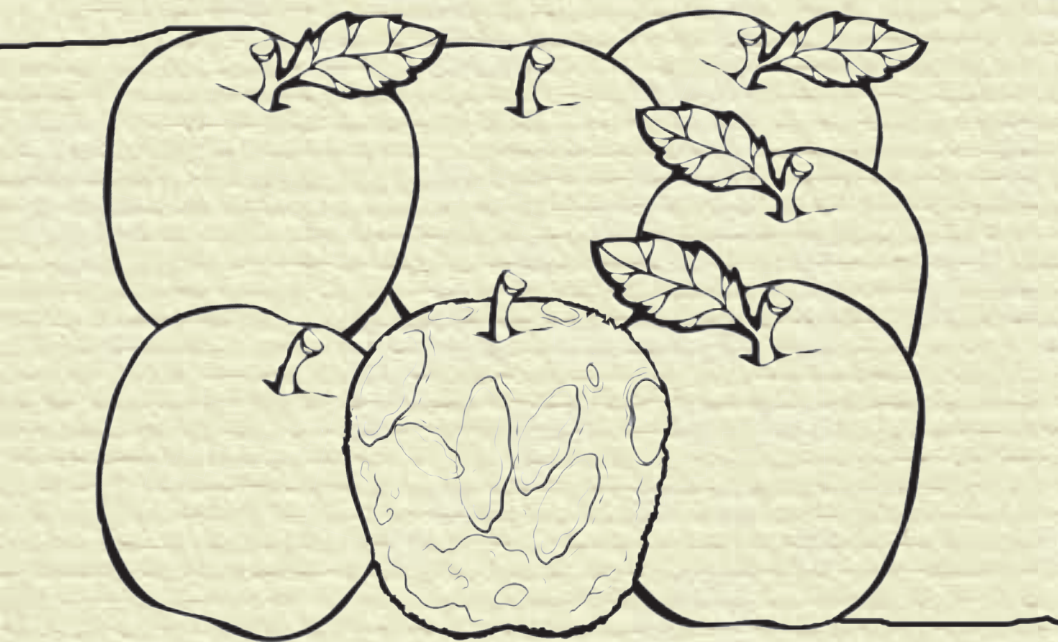
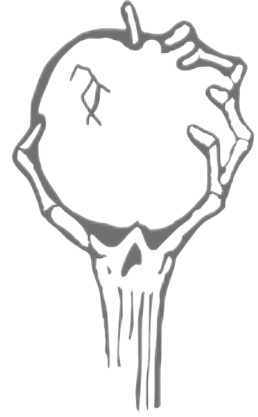


التفاحة الفاسدة

مطارات حول
الفساد والإصلاح



بقلم
علي حسن



التفاحة الفاسدة

مطارات حول
الفساد والإصلاح

بقلم
علي حسن



﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ
عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ
وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ
أُنِيبُ﴾

«سورة الحجر»

وَإِنِّي لَمْ أَخْرَجْ أَشْرًا وَلَا بَطْرًا وَلَا
مُفْسَدًا وَلَا ظَالِمًا، وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لَطَلَبِ
الْإِصْلَاحِ فِي أُمَّةٍ جَدِّي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وآلِهِ، أُرِيدُ أَنْ أَمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهِيَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَأُسِيرَ بِسِيرَةِ جَدِّي وَأَبِي عَلِيٍّ
ابْنِ أَبِي طَالِبٍ.

«الإمام الحسين»

مشكلة التفّاحة الفاسدة أنّ فسادها
لا يتوقف عندها، بل إنها تُفسد ما حولها
من التفّاح، أينما وُضعت... وهذا مكن
خطورتها!

ومن هنا تبدأ رحلتنا في هذا الكتاب،
في محاولة لاستقراء خلفيّات ومسبّبات
الفساد وتبعاته وآثاره، وسبل الوقاية
منه، وطرق الإصلاح ما أمكن.

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م

من مطبوعات

مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت

alwalaa.com

Email: alwalaa66@yahoo.com



محتويات الكتاب

- مقدمة الأستاذ أسامة سفر ١٣
- ● مقدمة المؤلف ١٧
- ١. مفهوم الفساد ٢٣
- ٢. فساد الحاكم ٤١
- ٣. الفساد الأخلاقي ٥٧
- ٤. الفساد في التجارة ٨٤
- ٥. الفساد الفكري ٩٩
- ٦. نقض العهود والمواثيق ١١٥
- ٧. مرشحون فاسدون ١٣٥
- ٨. المجتنبى والقادة الفاسدون ١٥٣
- ٩. عدوى الفساد ١٦٥
- ١٠. مفاهيم مغلوطة ١٧٧
- ١١. لئلا يفسد ابن اللبون ١٨٥
- ١٢. الفساد وآجال الأمم ١٩١
- ١٣. الفساد وإحباط الشباب ٢٠٣
- ١٤. معاقبة المُفسدين ٢١١

٢٢١	١٥ . مسئولية الإصلاح
٢٤١	١٦ . المعارضة والفساد
٢٥٧	١٧ . لا يحبّون الناصحين
٢٧٧	١٨ . مُصلحون مُزيّفون
٢٨٥	● ● مصادر الكتاب



شرفني الشيخ علي حسن بأن أضع مقدمة كتابه (التفاحة الفاسدة - مطارحات حول الفساد والإصلاح).

يحتوي كتابه ثماني عشرة أطروحة امتزجت بأسلوب الحداثة والتشويق والتعامل السلس بالانتقال من أطروحة إلى أخرى، فلا يشعر القارئ بأنه انقطع بأفكاره حين يلتقي بأخرى تُنْعَشُ سابقتها.

لعل أصعب أدوات الربط التي استخدمها الشيخ علي حسن والتي تمكّن منها بنجاح، ربط جميع تلك الأطروحات

بالآيات القرآنية الكريمة، فعند كل إشارة وحديث عن مناحي الفساد وأشكاله، تجد الآية القرآنية الدالة عليها بشكل أكثر من رائع، إضافة إلى الاستشهاد بالأحاديث والروايات وأمّهات الكتب.

أسلوب الحداثة في عناصر الكتاب ليس غريباً على الشيخ علي حسن، فقد بادر لإقامة صلاة الجمعة بأحكامها الشرعية والإسلامية في حين عُزف عنها في الغالبية العظمى من مساجدنا في الكويت، وهو من يستعين في شرحه للظواهر الكونية بعلم الفلك بأرقامه ومعطياته الحديثة الدالة عليه، لذا، لم يكن مستغرباً أن يُضفي على كتابه بعضاً من الحداثة التي يتبنّاها.

عندما تتصفح هذا الكتاب -عزيزي القارئ- ستشعر بأنك تتصفح التاريخ بين يديك، وتنتقل بين عصر وآخر، وبين حقبة زمنية وأخرى، بثوانٍ معدودات، ستمكّن خلالها من التوقّف على مظاهر الفساد منذ مئات السنوات، بأسلوب شيق، فكانت الإضافة العلمية التاريخية حاضرةً لبيان وتفسير ظاهرةٍ يعاني منها الجميع في هذا العصر.

مَنْ أفسد التفاحة؟
وكيف أفسدت ما حولها؟
وكيف تمكّنوا منها؟
وكيف نمنع انتقال فسادها؟
كلّ هذا وأكثر في تناول يديك مع هذا الكتاب الشيق.
قراءة ممتعة للجميع.

أسامة عبدالرضا سفر

كاتب صحفي بجريدة الراي الكويتية
وكاتب سابق في جريدة الطليعة والقبس
وعضو مجلس إدارة سابق وعضو مؤسس
في الجمعية الكويتية للدفاع عن المال العام
وعضو في العديد من جمعيات النفع العام
الكويت

١/ ربيع الثاني/ ١٤٤٤ هـ

٢٧ أكتوبر ٢٠٢٢



مقدمة المؤلف

الحمد لله قاصم الفاسدين، مبير المفسدين، موضع حاجات الصالحين، مُعْتَمَد المصلحين، والصلاة والسلام على المصطفى محمد خير المرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وجميع الرسل والنبیین.

الحديث عن ثنائية الفساد والإصلاح يمثّل الشغل الشاغل في عالمنا العربي والإسلامي عموماً، ومن بينها الكويت، وذلك بلحاظ ما تشهده دولها من مستويات عالية من الفساد على المستوى السياسي والإداري والاقتصادي وغيرها، وطموح الأجيال الشابة التي تقارن بين أوضاع

بلدانها في هذا الإطار مع أوضاع دول أخرى على المستوى العالمي، فتتسبب لتأخر عجلة التنمية، وهدر الأموال العامة، ونهبها على يد البعض، واستئثار فئة معينة بالحصة الأكبر من خيراتها، والتمييز بين الأفراد وفق عناوين بعيدة كلُّ البُعد عن المعايير الوظيفية، وغير ذلك من صور الفساد.

من هنا تسعى بعض الجماهير للمطالبة بإقرار مستويات عالية من العدالة في مجتمعاتهم، والتزام القانون وتطبيقه على الجميع، وتكافؤ الفرص، وقد نصّ الدستور الكويتي على سبيل المثال على أن: (العدل والحرية والمساواة دعائم المجتمع... تصون الدولة دعائم المجتمع وتكفل الأمن والطمأنينة وتكافؤ الفرص للمواطنين... الاقتصاد الوطني أساسه العدالة الاجتماعية، وقوامه التعاون العادل بين النشاط العام والنشاط الخاص، وهدفه تحقيق التنمية الاقتصادية وزيادة الإنتاج ورفع المستوى المعيشة وتحقيق الرخاء للمواطنين، وذلك كله في حدود القانون.. لا سلطان لأي جهة على القاضي في قضاؤه، ولا يجوز بحال التدخل في سير العدالة، ويكفل القانون استقلال القضاء).

ويأتي هذا الكتاب ليقدم مجموعة متنوعة من الأفكار

والاستخلاصات القرآنية والدروس التاريخية في محاولة لطرح رؤى عصرية منطلقة من أصالة الفكر القرآني، وربط النظرية بالتطبيق، والأفكار بالأمثلة والمصاديق، وهي في الأساس خطب أُلقيت من منبر الجمعة، ومحاضرات في مناسبات مختلفة، تمّ تجميعها وترتيبها بحيث يتدرّج معها القارئ في الأفكار والأطروحات حتى يصل إلى الهدف الأساس من الكتاب، وهو أن يكون رافداً ثقافياً في مجاله.

أما الاسم المختار كعنوان للكتاب فجاء بلحاظ أن التفاحة كفاكهة لذيذة، مفيدة، وجميلة المنظر، قابلة لأن تفسد بسرعة جداً نتيجة تعرّضها لكائن طفيلي يعتاش عليها، أو تسوّس داخلي، أو لعفونة طارئة، أو غير ذلك من العوامل التي تُفقدّها امتيازاتها النفعية والجمالية، وقد يتم كل ذلك من وراء قشرتها الجذّابة البراقة دون أن يدرك مَنْ يشاهدها أن ما وراء المظهر الجميل والشهيّ شئ يبعث على الاشمئزاز والقرف!

ومشكلة التفّاحة الفاسدة أنّ فسادها لا يتوقف عندها، بل إنها تُفسد ما حولها من التفّاح، أينما وُضعت... وهذا مكمّن خطورتها!

هكذا هو حال الفساد حين ينخر في جسد عالم السياسة والإدارة والاقتصاد والثقافة والدين والإعلام وغيرها من المجالات العامة، حيث لا يُبقي ولا يذر، ويكون شديد العدوى كالتاعون المُميت. ومن هنا تبدأ رحلتنا في هذا الكتاب، في محاولة لاستقراء خلفيات ومسببات الفساد وتبعاته وآثاره، وسبل الوقاية منه، وطُرق الإصلاح ما أمكن.

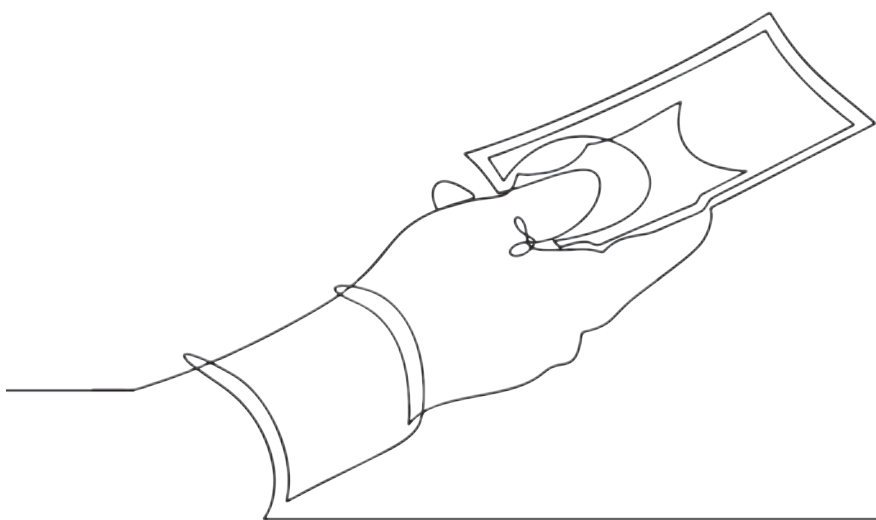
وفي الختام، لا يفوتني أن أتقدّم بالشكر الجزيل للأستاذ علي البغلي المحترم، المحامي والكاتب الصحفي والنائب السابق في مجلس الأمة الكويتي، ووزير النفط الأسبق، ورئيس مجلس إدارة الجمعية الكويتية لحقوق الإنسان، لما تفضل به من تقديم للكتاب. كما وأتقدّم بالشكر للأخ العزيز المهندس مهدي زمان، وذلك لجهوده في جمع المادة الأصلية للكتاب من خلال موقع Alwalaa.com وبعض الإصدارات السابقة للمؤلف.

علي حسن غلوم علي

الكويت

٢٠ ربيع الأول ١٤٤٤ هـ / ١٦ أكتوبر ٢٠٢٢







ما المراد من الفساد من الناحية اللغوية؟ وهل المعنى الدارج لهذه الكلمة يتوافق مع المعنى اللغوي؟ وهل استعمل القرآن الكريم هذه الكلمة في المعنى اللغوي، أم اشتق لها معنى خاصاً أو أكثر شمولية؟

من الناحية اللغوية : (الفساد: خروج الشئ عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج أو كثيراً، ويضادّه الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة) «المفردات في غريب القرآن، ص٣٧٩»، وهذا يعني أنّ للأشياء وظائف وأدوار متوقّعة منها، وهذا هو صلاحها.

فعندما تكون الثمرة ناضجة نقول أنها ثمرة صالحة للأكل، وعندما تكون الأرض محروثة ومدعّمة بالأسمدة والأتربة المناسبة نقول أنها صالحة للزراعة، وعندما يكون الحاكم مؤدّباً لمهامه كما ينبغي فنقول أنه حاكم صالح، وعندما يكون الإنسان مستقيماً في سلوكه، محباً للخير عاملاً به، خلقاً مؤدّباً نافعاً، فإنّ هذا الفرد يوصف بأنه فرد صالح في المجتمع.. وهكذا.

وفي المقابل فإنّ الفساد سيعني وجود خلل أو نقص في أداء الشيء لهذه الوظيفة أو المهمة.. وكل شيء بحسبه. ففساد الآلة بخرابها، وفساد الجسم بمرضه وضعفه، وفساد الثمرة بفقدان قوامها أو طعمها أو لونها، وفساد الحاكم بنكوصه عن أداء مهامّه، أو بانهدام العدالة، أو بتجاوز القوانين، وفساد الفرد بتجاوزه القوانين، وسوء خلقه، وارتكابه ما يشين علانيّة.. أو غير ذلك.

ويجدر أن ننتبه إلى أنّ الصلاح أمرٌ نسبي، وكذلك الفساد، فالإنسان قد يكون صالحاً وفاسداً في آن واحد.. فليحاذ المواطن قد يكون صالحاً، لأنه يلتزم بالقوانين العامة ويساهم في بناء الوطن.. إلخ، ونفس هذا الإنسان

قد لا يكون صالحاً بالمقياس الديني لأنه تارك للواجبات كالصلاة مثلاً. وقد يكون بالنسبة إلى مجتمع كافر إنساناً صالحاً، وبالنسبة إلى مجتمع مؤمن إنساناً فاسداً.

• المواجهة الدولية للفساد:

وهناك نقطة أخرى، فمن الواضح لكل متتبع أن المجتمع الدولي المعاصر رفع شعار محاربة الفساد، وأسّس في هذا الطريق عدّة مؤسسات سنستعرض بعضاً منها لاحقاً، فهل تتطابق رؤية المجتمع الدولي المعاصر في حربه ضد الفساد مع رؤية القرآن للفساد ومصاديقه؟ وبعبارة أخرى، هل أنّ تعريف الفساد في المفهوم الدولي المعاصر ومصاديقه وأمثله الخارجية يتطابق مع تعريف الفساد ومصاديقه وأمثله في القرآن الكريم؟

تتضح الإجابة على ذلك من خلال استعراض المؤسسات التي أقيمت من قبل الأمم المتحدة وجهات أخرى لمواجهة الفساد، وتعريفها له، والمجالات التي تسعى للعمل فيها:

١. تأسيس (منظمة الشفافية الدولية) عام ١٩٩٣ بألمانيا، وهي الآن منظمة عالمية غير حكومية، تتشكل من ١٠٠ فرع، مع سكرتارية دولية في برلين. تعرّف نفسها على أنها: (منظمة

مجتمع مدني عالمية تقود الحرب ضد الفساد. تجمع الناس معاً في تجمع عالمي قوي للعمل على إنهاء الأثر المدمر للفساد على الرجال والنساء والأطفال حول العالم. مهمة الشفافية الدولية هي خلق تغيير نحو عالم من دون فساد).

والمنظمة لا تتولّى التحقيق في قضايا فساد معيّنة، بل تطوّر وسائل مكافحة الفساد، وتعمل مع منظمات المجتمع المدني والشركات والحكومات لتنفيذها، كما قد تقوم بعمل ائتلافات لمحاربة الفساد.

منذ العام ١٩٩٥ بدأت المنظمة بإصدار مؤشر فساد سنوي ويُعرّف بـ (CPI)، كما تنشر تقريراً عن الفساد العالمي. وهي تعرّف الفساد بأنه إساءة استغلال السلطة المؤتمنة من أجل المصلحة الشخصية، وتقسم مؤشرها إلى ١٠ درجات، فما جاء في المرتبة الأولى فهو يعني أنه الأكثر فساداً، والعكس صحيح.

٢. في عام ٢٠٠٣، أقرّت الجمعية العامة للأمم المتحدة (ميثاق الأمم المتحدة لمكافحة الفساد)، وهو أول اتفاقية دولية ملزمة لمحاربة الفساد، تحدّد إجراءات الحماية منه وتحصين المجتمعات ضده، وكشفه وتجريمه، وتسهيل التعاون

الدولي لاسترداد الثروات المسلوقة. انضمت إليه الغالبية العظمى من الدول الأعضاء، وتم تحديد التاسع من ديسمبر من كل عام على أنه (اليوم العالمي لمكافحة الفساد).

٣. إنشاء منظمة (برلمانيون عرب ضد الفساد) في نوفمبر ٢٠٠٤ والمنبثقة عن مؤتمر برلماني إقليمي عُقد في بيروت، وتُعرف نفسها كالتالي: منظمة عربية غير حكومية، لا تبغي الربح. وتهدف بشكل أساسي إلى جمع البرلمانيين والناشطين بالشأن العام، وتقوية قدراتهم في مكافحة الفساد وتعزيز المساءلة والشفافية وحكم القانون. تتخذ المنظمة من بيروت مقراً لها، وقد تم إنشاء عدة فروع وطنية لها، من بينها فرعها في الكويت تحت عنوان (برلمانيون كويتيون ضد الفساد) وذلك في عام ٢٠٠٥.

٤. صدور اتفاقيات إقليمية وقارية لمحاربة الفساد، من بينها وثيقة الاتفاقية العربية لمكافحة الفساد في ديسمبر ٢٠١٠، الصادرة عن جامعة الدول العربية.

٥. في مارس ٢٠١١ تم تأسيس (الأكاديمية الدولية لمكافحة الفساد) في فيينا، بمبادرة من الحكومة النمساوية والأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي، وتهدف إلى مساعدة الدول

الموقّعة على ميثاق مكافحة الفساد على تطبيق أحكامه.

ومما سبق سيّضح أن التعريف الذي قدّمته منّظمة الشفافية الدولية للفساد، وهو: (إساءة استغلال السلطة المؤتمّنة من أجل المصلحة الشخصية) إنما يمثّل مفردة من مفردات الفساد في المصطلح القرآني وفق ما سنتوصّل إليه من خلال البحث، فقد طرح القرآن عنوان الفساد بصورة واسعة شملت نواح عديد من حياة الناس، ولم يقتصر القرآن على الفساد في إطار المفردة السابقة، كما أنه أيضاً لم يقتصر على الفساد في إطار السلوك الفردي السلبيّ فقط، من قبيل شرب الخمر والزنى وترك الصلاة وسوء الخلق، كما يقتصر عليه فهم كثير من المتدينين عند تقديم تصوّرهم حول الفساد في المفهوم الدّيني.

• موارد (الفساد) في القرآن:

ارتبط ذكر هذا المصطلح في القرآن بعناوين متعدّدة في السلوك البشريّ المنحرف، ومن أمثلة ذلك الشرور والمعاصي التي تمثّل اعتداءً على حقوق العباد من خلال:

○ القتل: ﴿..... قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُقْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ

الدِّمَاءَ﴾ (٣٠) «البقرة».

● التخریب: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ۝﴾ «البقرة».

● السرقة: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ۝﴾ «يوسف».

● أكل حقوق اليتامى وأموالهم: ﴿..... وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَمْتَلِكُ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۝﴾ «البقرة».

● تطفيف الكيل والميزان: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۝ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۝ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝﴾ «الشعراء».

ولربما من هذا الباب ارتبط مصطلح الفساد في القرآن بكلمة (الأرض) في أكثر موارد استعماله، حتى يكاد يكون مصطلح (الفساد في الأرض) مصطلحاً قرآنياً له دلالاته وأبعاده وإحياءاته كما أشار إلى ذلك بعض الباحثين.

فقد استعمل الكتاب الحكيم كلمة الفساد وتصريفاتها ٥٠ مرة، منها ٣٩ مرة ورد فيها اسم الأرض أو إشارة إليها، كما في الآيات التالية:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ﴿البقرة﴾.

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿البقرة﴾.

﴿..... كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿البقرة﴾.

﴿..... وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿المائدة﴾.

ولربما كان ذلك من جهة أن الآيات تريد أن تؤكد على عموم وسعة ما يشمل موضوع الفساد.. فظاهرة الفساد التي يشير إليها القرآن الكريم ليست ظاهرة فردية أو شخصية، أو محدودة بمجتمع ضيق أو حالة معينة خاصة، بل هي ظاهرة تعم المجتمع الإنساني بغالبية، لأن الممارسات التي يُطلق عليها القرآن الكريم عنوان الفساد، تشمل الظواهر الإنسانية العامة والواسعة التي يصح أن يُطلق عليها عنوان (الفساد في الأرض).

• الفساد في الأرض:

ومصطلح الفساد في الأرض له دلالات قوية، من ذلك أن الأرض وُضعت للناس جميعاً، فإذا كان سلوك فرد أو جماعة يُسيء إلى هذا المأوى أو يؤدي إلى خرابه، فإنّ من مسؤولية الناس أن يمنعوا ذلك ويقاوموه، دون أن تنحصر المسؤولية بشخص معين، لأنّ المشكلة حينذاك تخصّ كلّ البشر.

وقد نجد أن القرآن الكريم ينتقد أو يحذّر من بعض التصرفات ويطلق عليها لفظ الفساد، وهي لا تتصف بتلك السعة والشمولية، لكنّ عمق خطرها وأثرها السيء يؤدي إلى فساد المجتمع كله، أو الحضارة السائدة، بحيث يمكن أن تدخل تحت عنوان الفساد في الأرض.

ففي قصة النبي يوسف «عليه السلام» تقول الآية:

فَالْآيَةُ ضَمِنَ قِصَّةَ النَّبِيِّ يُوسُفَ «عليه السلام» تذكّر أنّ الإخوة: ﴿قَالُوا تَأَلَّيْهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَآ جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ (٧٣) «يوسف»، فما هي طبيعة الجريمة المتصوّر أنهم سيرتكبونها؟ وما هي حدودها؟ لاسيما بلحاظ أنهم طارئون على ذلك المجتمع وعددهم محدود... كلّ المسألة كانت:

﴿قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ﴾ ﴿٧٢﴾ «يوسف»، فالمسألة أحياناً تكمن في عمق التأثير لا في حجم الفعل ذاته.

• الإنسان والفساد:

ويلاحظ من تتبّع الآيات القرآنية حول الفساد أنّ لهذا العنوان حضوراً قوياً وواضحاً في بداية الوجود البشري من خلال الحوار الذي دار بين الملائكة وبين الله، قال «سبحانه»: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِنَّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنَّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣١﴾ «البقرة».

أي أنّ حضوره سابق حتى على خلقه، وكأنها سمة لازمة لطبيعة خلقته من خلال ما تبادل عند الملائكة، لعلمهم بأنّ وجود مخلوق بالصورة التالية: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ﴿٢﴾ «الإنسان»، يستدعي تلقائياً أن يُفسد ويسفك الدماء، لأنه سيعيش الصراع بين العقل والغريزة في شخصيته، ويختزن عناصر النزاع والخلاف، والرغبة في التدمير، والأنانية في التملك والتسلط في ذاته، ما يؤدي إلى الإفساد المادي والمعنوي، فتعيش الأرض، من خلال ذلك، في جوٍّ من الحروب المُفسدة والمدمرة، لا سيّما

بلحاظ طبيعة الحياة الدنيا وما قد تتصارع عليه الأطراف الطامعة في الحصول على ما فيها، وهذا لا يتناغم مع حب الله للخير والسلام وإرادته للتقوى والعمل الصالح.

قال العلامة الطباطبائي أن كلام الملائكة: (مُشْعَرُ بَأْنَهُمْ إِنَّمَا فَهَمُوا وَقُوعَ الْإِفْسَادِ وَسَفْكَ الدِّمَاءِ مِنْ قَوْلِهِ «سُبْحَانَهُ»: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ حيث إن الموجود الأرضي بما أنه مادي مركب من القوى الغضبية والشهوية، والدار أي الحياة الدنيا (دار التزاحم، محدودة الجهات، وافرة المزاحمات، مركباتها في معرض الانحلال، وانتظاماتها وإصلاحاتها في مظنة الفساد ومصبّ البطلان، لا تتم الحياة فيها إلا بالحياة النوعية، ولا يكمل البقاء فيها إلا بالاجتماع والتعاون، فلا تخلو من الفساد وسفك الدماء، ففهموا من هناك أن الخلافة المرادة لا تقع في الأرض إلا بكثرة من الأفراد ونظام اجتماعي بينهم يفضي بالآخرة إلى الفساد والسفك) «الميزان في تفسير القرآن، ج ١، ص ١١٥»، فكيف يمكن لمن سيكون خليفة وممثلاً لله «سبحانه» المتّصف بالصفات العليا، من أوصاف الجمال والجلال، المنزه في نفسه عن النقص، والمقدس في فعله عن الشر والفساد أن

يكون على خلاف ذلك؟

وتُكمل الملائكة ملاحظتها بأنه إذا كانت حكمتك -يا إلهنا- من استخلاف الإنسان في الأرض أن يسبّحك ويقدّس لك ويعبدك، باعتبار أن العبادَة هي غاية الخلق في مَنْ تَخْلُقُهُ، فإنّما يتراءى لنا أننا نحن الملائكة الأولى بهذا الاستخلاف لأننا ﴿..... نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ.....﴾ ﴿٣٠﴾ وقد صدّق ظنُّهم، وتحقّق ما تحدثوا عنه، وفي بداية الوجود البشري، في ما استعرضه القرآن من قصة ابني آدم: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِم نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٩﴾ فَطَوَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ﴾ ﴿٣٢﴾ «المائدة».

ولذا لم يخطئهم الله «عزّ وجلّ» في الانطباع الذي ارتسخ عندهم، إلا أنه أعلمهم أنّ هناك مصالح كامنة، ونتيجة عنها، أكثر أهمية، وأقوى تأثيراً، وأفضل إنتاجاً من تلك المفاسد.

قال العلامة الطباطبائي: (إنه «سبحانه» لم ينف عن خليفة الأرض الفساد وسفك الدماء، ولا كذب الملائكة في دعواهم التسبيح والتقديس، وقرّره على ما ادّعوا، بل إنما أبدى شيئاً آخر، وهو أنّ هناك أمراً لا يقدر الملائكة على حمله ولا تتحمّله، ويتحمّله هذا الخليفة الأرضي، فإنه يحكي عن الله «سبحانه» أمراً، ويتحمّل منه سراً ليس في وسع الملائكة، ولا محالة يتدارك بذلك أمر الفساد وسفك الدماء) «الميزان في تفسير القرآن، ج ١، ص ١١٦».

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ من طبيعة هذا الوجود الذي خلقه الله «عزّ وجل» أنّ الخير والشرّ يمتزجان فيه، فلا تجد في مكان جانباً من الخير إلا وتجد أنّ للشرّ حضوراً أو مجالاً للحضور.. فسمّ الأفعى خيرٌ لها وشرٌّ لأعدائها أو لفريستها.

• صفات المفسدين:

يمكن استخلاص مجموعة من صفات المفسدين وفق ما جاء في الآيات التي تحدثت عنهم وعن أفعالهم وصور إفسادهم، وهذه الصفات ليس بالضرورة أن تتوفر في كل مفسد، ولا بالضرورة أن تجتمع كلها في شخص واحد،

ولكنها من الصفات التي ارتبطت بهم في أثناء حديث القرآن عنهم:

١. يعجبك قول المفسد، فهو حلو اللسان، بينما قلبه ينطوي على الحقد والغل والخصام، قال «عز وجل»: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۖ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ۗ﴾ «البقرة». ويتحول ما في قلبه إلى سلوك شرير إذ يسعى ويجتهد في إفساد وإهلاك الناس والنبات والحيوان.

٢. يتصف المفسد بالكبر والكذب والتضليل، قال «عز وجل»: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۗ﴾ «البقرة». إن هذا النموذج من الناس لا يعترفون بفسادهم وإفسادهم، بل الأدهى من ذلك أنهم يرون أنفسهم مصلحين، وهي درجة أعلى من الصالحين؛ لأن الصالح هو من يزكي نفسه وخلقه وعبادته لربه، بينما المصلح هو الصالح في نفسه المصلح لغيره وهي منزلة عالية.

٣. المفسد قد يوقن في قرارة نفسه بالحق الذي يجحده ويرفضه في الظاهر، أو قد يوقن بأنه على باطل، ومن هذا

النموذج مَنْ ذَكَرَهُمُ الْقُرْآنُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ «النمل».

٤. بطل النعمة، ومثال ذلك هو (قارون) رمز أولئك الذين آتاهم الله من صنوف المال والنعم فظنوا كما ظن قارون أنه إنما أوتيته على علم عنده، فلم يوظف شيئاً منه لآخرته، ولم ينفقه في خير الناس، قال «عز وجل»: ﴿وَأَتَّبِعْ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ «القصص».

٥. إشعال نيران الحروب والفتن واختلاق الأزمات الاقتصادية أو السياسية أو العقائدية لخدمة مصالحهم، سواء لإشغال الناس عن الفساد المستشري، أو للانتفاع من هذه الحروب بتحقيق مكاسب مادية كما هو ديدن شركات الأسلحة العالمية والدول العظمى، أو لتدمير سياساتهم الفاسدة في محيط نشاطهم. قال «عز وجل»: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ

طُغِينًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٥﴾ «المائدة». يقول أحد الباحثين في الشأن الاجتماعي العراقي أنه كلما أراد الاستعمار البريطاني ومن يمثلته في الحكم في العراق في النصف الأول من القرن العشرين، تمرير أمر ما، خلقوا فتنة مذهبية بين السنة والشيعة لإلهاء الناس بها والتفرغ لإنجاز مشروعهم.

٦. الصدّ عن سبيل الله، قال «عز وجل»: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ «النحل»، وقال على لسان النبي شعيب «عليه السلام»: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ «الأعراف».

ولهذا الصد صور عديدة، فقد تحدث القرآن الكريم عن نموذج تعامل قريش مع النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمين بالتخويف والتعذيب والإغراء وغير ذلك من قبيل ما جاء في قوله «عز وجل»: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ «فصلت».

كما تحدث القرآن عن نموذج المنافقين الذين كانوا يمنعون الآخرين من الأخذ عن رسول الله، أو الالتحاق بجيش المسلمين، أو التمرد عليه، أو ببناء مسجد عُرف لاحقاً بعنوان (مسجد ضرار) ليكون مركزاً لمواجهة جهود النبي وهدم مشاريعه، أو غير ذلك من قبيل ما جاء في قوله «عز وجل»: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٩) «التوبة».





من الصور القرآنية للفساد في الأرض فساد الحاكم المتمثل في فرعون نموذجاً حيث قال «عز وجل»: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ١﴾ «القصص». ويمكن الاستنتاج بحسب الآية أن لتحقيق هذا النوع من الإفساد مقومات، وهي:

١. العلو في الأرض: بدلالة قوله: ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وذلك استكباراً من خلال الامتيازات العائلية، والأموال والممتلكات

التي تحت يديه، والجماعات التي كانت تحيط به وتزلف له،
وتقدم له الطاعة والولاء.

٢. تفتيت وحدة المجتمع: بدلالة قوله: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾
بافتعال أو ترسيخ التقسيم الطبقي والعرقي، ومن خلال إثارة
الصراعات لشغلهم عن قضايا العدالة الاجتماعية والحريات
وحقوقهم الإنسانية، ولضمان بقائهم تحت سلطانه.

٣. استضعاف شريحة من المجتمع: بدلالة: ﴿يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةً
مِّنْهُمْ﴾ وذلك بتسخير بني إسرائيل الذين كانوا بالنسبة إليه
في عداد الأسرى الأرقاء، فيستخدمهم في جميع حاجاته،
ليكونوا اليد العاملة المجانية -أو شبه المجانية- التي توفر
له كل ما يريد من دون خسارة.

٤. ارتكاب الجرائم بحق هذه الشريحة: بدلالة ﴿يَذَبِّحُ
أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾، فقتل الأبناء الذكور بعد أن
تداول بنو إسرائيل -بحسب بعض المرويات- أن أوان
ولادة النبي المبشّر به قد اقترب، وأنه سيكون السبب في
زوال ملك فرعون، الأمر الذي بثّ الرعب في قلبه، فأمر
بقتل المواليد الذكور من بني إسرائيل دون استثناء.. كما
كان يستحيي نساءهم ويسلبهن حريتهن بغيّة استخدامهن

في شؤونه وشؤون طبiquته الاجتماعية. ما مارسه فرعون وفق الآية القرآنية مثل إخلالاً بالأمن الاجتماعي، وهذا الإخلال من الصور الخطيرة للفساد، ومن هنا اعتبر القرآن الكريم هذه الممارسة الفرعونية نوعاً من الإفساد. ولكي يتضح عمق الخطر في هذا النوع من الإفساد، لابد أن نعود لاستيضاح أهمية توفير الأمن الاجتماعي، فعبر القرون صيغت الأنظمة والقوانين والأعراف والمواثيق لتحفظ أمن المجتمع وسلامته داخلياً وخارجياً، ولتأمين وضع اقتصادي يضمن سبل المعيشة المناسبة ونموها، وتوفير مأوى مناسب لأفراد المجتمع، وبالتالي تحقيق حياة كريمة محترمة.

ولنلاحظ وصف الإمام علي «عليه السلام» لتوفر مقومات الأمن الاجتماعي حين حكم الكوفة: (إنه ما أصبح بالكوفة أحد إلا ناعماً، إن أدناهم منزلة ليأكل البر، ويجلس في الظل، ويشرب من ماء الفرات) «بحار الأنوار، ج ٤٠، ص ٣٢٧»، فهم في نعمة وافرة (إن أدناهم منزلة ليأكل البر) فلا جائع في الكوفة، بل والطعام الأدنى هو البر، والبر أرقى من الشعير الذي اعتادوا أكله (ويجلس في الظل) أي يمتلك سكناً (ويشرب من ماء الفرات).

وأي تهديد لهذه الحاجات أو خلل في تلبيتها أو كفايتها، يعدّ تعدياً على تلك الحقوق، ويطلق عليها القرآن عنوان (الإفساد في الأرض)، ومن أمثلة ذلك:

١. إهمال البنية التحتية للبلد في المجال الصحي أو التعليمي أو المواصلاتي أو غير ذلك حتى تتهالك بمرور الزمن دون اتخاذ إجراء مناسب.

٢. عدم معالجة موضوع الغلاء الفاحش الذي يحرم المواطن من الحصول على أبسط احتياجاته المعيشية إلا بشق الأنفس، أو بهدر الكرامة، أو بالسرقة، أو بالارتشاء، أو بتجاوز القانون، ويقف الحاكم موقف المتفرج، أو يكون مساهماً في ذلك، تلبيةً لمصالحه.

٣. وضع تشريعات تعمل على خلق هوة بين طبقات المجتمع أو اتساعها، فتتعدم الطبقة المتوسطة كما حصل في بعض المجتمعات المعاصرة، مع الإصرار على السياسات الاقتصادية الفاشلة، أو التي تصب في مصلحة الحاكم، أو مصلحة الحاشية المتنفذة من حوله، أو طبقة معينة في المجتمع.

٤. السماح بنشوب الصراعات الطائفية والاقتتال المذهبي والنزاعات الحزبية العنيفة، أو العمل على نشوبها، أو عدم

المبادرة لغرس مفاهيم المواطنة السليمة، أو عدم توفير الأجواء المناسبة لها، أو فتح المجال لنمو القوى المتطرفة التي تعمل على تمزيق المجتمع وتفتيت لُحمته، وكل ذلك بهدف تفعيل سياسة (فرّق تسد)، أو للاستقواء بطرف على حساب بقية الأطراف.

٥. حرمان فئات من المجتمع من حقوقها في ممارسة شعائرها الإيمانية بحرية مسؤولة، أو عدم الاعتراف أصلاً بوجودها، نتيجة التعصب الديني أو المذهبي.

ومن هنا ارتأت المجتمعات البشرية المتحضرة ضرورة وجود دستور تنظم من خلاله العلاقات على كافة الأصعدة، ويمارس الحاكم حكمه بواسطته، ويحاسب به المسئئ مهما علا شأنه، ويكافأ به المحسن دون تمييز.. إلخ. وقد قدّم أمير المؤمنين علي «عليه السلام» من خلال كتابه إلى مالك الأشتر حين بعثه إلى مصر ليحكمها، دستوراً رائعاً للحكم يشتمل على توصيات أخلاقية وإدارية وسياسية.

• صورة أخرى لإفساد الحاكم:

ولا يتوقف تحقق الإفساد على يد الحاكم الظالم بما يمارسه في إطار مجتمعه، بل بعدوانه على المجتمعات

الأخرى المسالمة أيضاً، وقد تحدث القرآن الكريم عن مثل هذه الصورة في حديثه عن عدوان يأجوج ومأجوج ضمن أحداث رحلة ذي القرنين الإصلاحية في الأرض، حيث واجه الوضع التالي: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَبْنَؤُا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ «الكهف».

وتصرّح الآيات أن القوم الذين طلبوا نجده كانتهم كانوا قوماً متخلفين بلا حضارة ولا مدنية، بل ويبدو أنهم ما كانوا يمثلون مجتمعاً مؤمناً.. فلم يمنع ذلك ذا القرنين من أن يعينهم بجهد جهيد في ردّ عدوان قبائل يأجوج ومأجوج من خلال بناء ردم ضخّم بين جبلين.

ويمكن أن يستفاد من ذلك أن العدوان على المجتمعات المسالمة، وبلا وجه حق، يعد نوعاً من أنواع الإفساد في الأرض، بغض النظر عن طبيعة الانتماء الديني لذلك المجتمع، وهذا ما لم يقبل به ذو القرنين من باب الإحساس بالمسؤولية، فبادر لمساعدة المعتدى عليهم بذلك البناء.

• الإمام الحسين يواجه فساد السلطة:

واجه الإمام الحسين «عليه السلام» واقعاً مؤلماً من فساد السلطة الحاكمة، إذ عمل الأمويون لتحقيق أهدافهم السلطوية على عدة جبهات وذلك خلال عقدين من الزمن، فكان من بينها:

١. اتباع سياسة الإرهاب والقتل والتجويع بالنسبة إلى مَنْ لا يتفق معهم في الهوى السياسي، ففي كتاب (الغارات) لإبراهيم بن محمد الثقفي: (عن سفيان بن عوف الغامدي قال: دعاني معاوية فقال: إني باعثك في جيش كثيف ذي أداة وجلادة فالزم لي جانب الفرات حتى تمر بهيت «بلدة تقع على الفرات شمال الأنبار» فتقطعها، فإن وجدت بها جنداً فأغر عليهم، وإلا فامض حتى تغير على الأنبار، فإن لم تجد بها جنداً فامض حتى تغير على المدائن ثم أقبل إلي، واتق أن تقرب الكوفة، واعلم أنك إن أغرت على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنك أغرت على الكوفة، إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترهب قلوبهم وتجري كل من كان له فينا هوى منهم ويرى فراقهم، وتدعو إلينا كل من كان يخاف الدوائر، وخرّب كل ما مررت به من القرى، واقتل

كل من لقيت ممن ليس هو على رأيك، وأحرب الأموال «أي خذها كاملة ولا تُبق منها شيئاً» فإنه شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلوب) «الفارات، ج ٢، ص ٤٦٤».

وقد ذكر الإمام علي «عليه السلام» بعض هذه الفارات التي شنها الغامدي كما جاء في نهج البلاغة حيث قال: (وهذا أخو غامد قد وردت خيلُه الأنبار، وقد قتل حسان بن حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحتها، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقلبها وفلائدها ورعاثها «أقراطها»، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وافرين، ما نال رجلاً منهم كلم، ولا أريق لهم دم، فلو أن امرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً) «نهج البلاغة: خ ٢٧».

وذكر الثقي أيضاً في كتابه (الفارات): (دعا معاوية الضحاك بن قيس الفهري وقال له سر حتى تمر بناحية الكوفة وترتفع عنها ما استطعت فمن وجدته من الأعراب في طاعة علي فأغر عليه وإن وجدت له مسلحة أو خيلاً فأغر عليهما، وإذا أصبحت في بلدة فأمس في أخرى، ولا

تقيمَن لَخيلِ بَلغكَ أَنها قَد سُرَّحتْ إِلَيكَ لِتَلقَها فَتَقَاتِلَها .
 فَسُرَّحَها فِيما بَينَ ثَلَاثَةِ آلَافٍ إِلَي أربَعةِ آلَافٍ جَريِدةِ خيلٍ)
 أي خِيلةٍ فَقَطْ مِن غيرِ قوَّةِ مِشاةٍ (قال : فَأَقْبَلَ الضَّحاكُ
 يَأْخُذُ الأَمْوالَ وَ يَقْتُلُ مِن لَقِيَ مِنَ الأَعْرابِ حَتى مَرَّ بِالثَّعلِبيَّةِ
 فَأَغَارَ خيلَهُ عَلى الحَاجِ فَأَخَذَ أَمَتَعتَهُم ، ثُمَّ أَقْبَلَ مَقْبِلاً فَلَقِيَ
 عَمرو بْنَ عَميسَ بْنَ مَسْعُودِ الذَّهلي وَ هُوَ ابْنُ أَخِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
 مَسْعُودِ صَاحِبِ رَسولِ اللَّهِ « صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ » فَقتَلَهُ فِي
 طَريقِ الحَاجِ عَندَ القُطَقطانَةِ وَ قَتَلَ مَعَهُ نَاساً مِنْ أَصْحابِهِ .
 قال أَبُو رَؤُوفٍ فَحدَّثَنِي أَبِي أَنه سَمِعَ عَلِياً « عَلَيهِ السَّلامُ » وَقد
 خَرَجَ إِلى النَاسِ وَ هُوَ يَقولُ عَلى المَنبرِ : يا أَهْلَ الكُوفَةِ
 اخْرُجُوا إِلى العَبْدِ الصَّالِحِ عَمرو بْنَ عَميسَ وَ إِلى جِيوِشِ
 لَكم قَد أَصِيبَ مِنها طَرفٌ ، اخْرُجُوا فَقَاتِلُوا عَدُوَّكم وَ امْنَعُوا
 حَرِيمَكم إِن كُنْتُمْ فاعِلين . قال : فَرَدُّوا عَلَيهِ رَدّاً ضَعيفاً ، وَرَأى
 مِنْهم عَجْزاً وَ فِشلًا فَقال : وَ اللَّهُ لَوَدِدْتُ أَنَّ لِي بِكُلِّ مائَةِ رَجُلٍ
 مِنْكم رَجُلًا مِنْهم ! وَ يَحْكُمُ اخْرُجُوا مَعِيَ ثُمَّ فَرُّوا عَنِّي إِذا بَدَأَ
 لَكم ، فَوَ اللَّهُ ما أَكرَهُ لِقائَ رَبِّي عَلى نِيتي وَ بِصِيرَتِي وَ في ذَلكِ
 رَوْحٌ لِي عَظيمٌ وَ فَرَجٌ مِنْ مَناجاتِكم وَ مَقاساتِكم وَ مَداراتِكم
 مِثْلُ ما تَدارِى البِكارُ العَمِدَةَ) مِثْلما تَدارِى الإِبِلُ الشابَةَ

الصغيرة المكسورة السنام بسبب ثقل الحمل (والثياب المتهرئة) المتهتكة لقدمها (كلما خيطت من جانب تهتكت على صاحبها من جانب آخر ثم نزل، فخرج يمشي حتى بلغ الغريين، ثم دعا حجر بن عدي الكندي من خيله فعقد له راية على أربعة آلاف ثم سرحه) «ج ١، ص ٣٩٢-٣٩٣».

وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: (كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي «عليه السلام» فاستعمل عليهم زياد بن سمية وضم إليه البصرة فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام علي «عليه السلام»، فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل، وطرفهم) أبعدهم إلى الأطراف والنواحي البعيدة (وشردهم عن العراق فلم يبق بها معروف منهم. وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق ألا يُجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة، وكتب إليهم

أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدّونا مجالسهم وقربوهم وأكرمهم وكتبوا لي بكل ما يروى كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته. ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلوات والكساء والحباء والقطائع ويفيضة في العرب منهم والموالي، فكثرت ذلك في كل مصر وتتافسوا في المنازل والدنيا فليس يجئ أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفّعه، فلبثوا بذلك حيناً. ثم كتب إلى عماله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإنّ هذا أحبّ إليّ وأقرّ لعيني وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته وأشدّ عليهم من مناقب عثمان وفضله. فقرئت كتبه على الناس فرُويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجد الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى

أشادوا بذكر ذلك على المنابر وألقي إلى معلمي الكتاتيب فعلموا صبيانهم وغلماهم من ذلك الكثير الواسع حتى روه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم فلبثوا بذلك ما شاء الله. ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه! وشفّع ذلك بنسخة أخرى: مَنْ اتهمته بموالة هؤلاء القوم فنكّلوا به واهدموا داره! فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق ولا سيما بالكوفة حتى إن الرجل من شيعة علي ع ليأتيه من يثق به فيدخل بيته فيلقى إليه سرّه ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمن عليه، فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر... حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها وهم يظنون أنها حق، ولو علموا أنها باطلة لما روهها ولا تدينوا بها. فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي «عليه السلام» فازداد البلاء والفتنة فلم يبق أحد من هذا القبيل الا وهو خائف على دمه أو طريد في الأرض)

«شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٤٤-٤٦».

وفي هذا الشأن أخبار كثيرة يمكن الاطلاع عليها في كتاب الغارات وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد وغيرهما. وقد كتب د. طه حسين في كتابه (الفتنة الكبرى): (لو رُدَّتْ إلى المسلمين أمورهم، وطلب إليهم أن يختاروا إماماً لما اختاروا معاوية بحال من الأحوال؛ لأنَّهم بلوا سياسته، وحبروا عمَّاله، فرأوا أنَّ أمورهم تصير إلى شرٍّ عظيم.. فهم يحكمون بالخوف لا بالرضا، ويُساسون بالرعب والرهب لا بما ينبغي أن يُساس به المسلمون من كتاب الله وسنة نبيِّه. وأموالهم العامَّة ليست لهم بل إلى ملكهم وولاتهم، يتصرَّفون فيها ما يشتهون، لا على ما يقتضيه الحقُّ والعدل والمعروف... ودماءؤهم ليست حراماً على الملك وعمَّاله، وإنَّما يستحلُّ منها الملك والعمَّال ما حرم الله... لا إقامة لحدود الدين، ولكن تثبيتاً لسلطان الملك) «الفتنة الكبرى، ج ٢، علي وبنوه، ص ١٣١ - ١٣٢».

٢. تمكين الحالة الطبقية والتعصبات العرقية والقبلية والحزبية واستغلالها، وعلى ذلك شواهد كثيرة لاحظها المستشرق ولهاوزن فكتب في مؤلفه (الدولة العربية):

(وأججّ الولاة نار هذه الخصومة «أي بين القبائل» ولم يكن تحت تصرف الولاة إلاّ شرطة قليلة، وفيما سوى ذلك كانت فرقهم من مقاتلة المصر، وهي قوّة الدفاع في القبائل ، حتّى إذا أحسنوا التصرف تهيّأ لهم أن يضربوا القبائل بعضها ببعض، وأن يثبتوا مركزهم بينهم. وكثيراً ما كان يحدث أنّ الوالي يعتمد على إحدى القبائل ضدّ الأخرى، وبوجه عام على قبيلته التي أتى بها معه، حتّى إذا أتى والٍ جديد أتت قبيلة أخرى إلى الحكم، وينتج من ذلك أنّ القبيلة التي نُحيت عن الحكم تُصبح عدوّاً لدوداً للقبيلة التي تحكم، وهكذا أضحت الميزات القبلية ملطّخة بالسياسة والخصام على الغنائم السياسيّة) «تاريخ الدولة العربيّة، ص ٥٨».

وقال الشيخ محمد مهدي شمس الدين في (ثورة الحسين): (وقد تقمصت هذه العصبية القبلية شكلاً دينياً حينما أخذت القبائل تسعى إلى اختراع الأحاديث في فضلها تنسبها إلى النبي «صلى الله عليه وآله»؛ وذلك إنّ هذه القبائل لمّا كانت تتنازع الرياسة، والفخر، والشرف وجدت في الأحاديث باباً تدخل منه إلى المفاخرة كالذي وجدته في الشعر، فكم من الأحاديث وضعت في فضل قريش،

والأنصار، وأسلم، وغفار، والأشعريين، والحميريين، وجهينة، ومزينة) «ثورة الحسين، ص ١٠٥».

٣. التلاعب في مفاهيم الإسلام وتشريعاته بغرض تمكين صور الفساد المختلفة وإضفاء الشرعية عليها، فحول دلالة عنوان الفساد ومصاديقه نجد الخبر التالي الذي يرويه ابن أبي الحديد: (وقد روي أن معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتى يروي أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ ٢٦ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ ٢٧ «البقرة»، وأن الآية الثانية نزلت في ابن ملجم، وهي قوله «تعالى»: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ أُتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ٢٧ «البقرة»، فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف فقبل، (وروى ذلك) «شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ٧٣».





الوضع الطبيعي في فطرة الإنسان في العلاقة الجنسية هو ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَاحِبًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ «الأعراف»، والآية الشريفة: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُومُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ «النساء»، وما سوى ذلك يعد خروجاً على الفطرة.

وكل خروج وتمرد على الفطرة له عواقب سلبية، إما على المستوى الفردي، كاعتلال الصحة أو الموت أو انقطاع النسل، أو على المستوى الجماعي كحدوث الفتن والحروب واختلال نظم المجتمع. ولنضرب على ذلك المثال التالي حيث قال «تعالى»: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿١٣﴾ «الحجرات»، هذه هي الفطرة البشرية الاجتماعية، فإذا اختل نظام التعارف الفطري هذا، بدأ الصراع والاقتتال ونشبت الفتن بين الناس.

وهكذا، فإن الإخلال بالوضع الفطري الطبيعي في لزوم كون العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة، لا بين الرجل والرجل، ولا بين المرأة والمرأة له عواقبه الوخيمة جداً.. وقد روي عن الإمام علي بن موسى الرضا «عليه السلام» أنه كتب جواباً على بعض المسائل، ومما كتبه: (وَعِلَّةُ تَحْرِيمِ الذُّكْرَانِ لِلذُّكْرَانِ وَالْإِنَاثِ لِلْإِنَاثِ لِمَا رُكِّبَ فِي الْإِنَاثِ وَمَا طُبِعَ عَلَيْهِ الذُّكْرَانِ، وَلِمَا فِي إِتْيَانِ الذُّكْرَانِ لِلذُّكْرَانِ وَالْإِنَاثِ لِلْإِنَاثِ مِنْ انْقِطَاعِ النَّسْلِ، وَفَسَادِ التَّدْبِيرِ، وَخَرَابِ الدُّنْيَا) «وسائل الشيعة، ج ٢٥٧٥١»، والمراد بقوله «عليه السلام»:

(لَمَّا رُكِبَ فِي الْإِنَاثِ وَمَا طُبِعَ عَلَيْهِ الذَّكَرَانِ) هو ما تقتضيه الفطرة الإنسانية، والقاعدة هي ما في قوله «تعالى»: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ «الأعراف».

بل حتى العلاقة ضمن الوضع الفطري لا بد من تقنينها، ولذا نظمها الخالق «سبحانه» لتكون في إطار معين، وهو الزواج ومُلك اليمين فقط: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ «المؤمنون»، ومخالفة ذلك تعني معارضة الفطرة أيضاً، وترتب الآثار الصحية والاجتماعية المدمرة على تفشي الزنا أمرٌ بيّن.

• الانحراف الجنسي، قوم لوط نموذجاً:

ولما تمرّدت بعض المجتمعات على هذه الفطرة، وأولها قوم النبي لوط «عليه السلام» كما قال الله «تعالى»: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ إِنَّكُمْ لَأَتَّائُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ

مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ أَلَيْسَ لَكُمُ اللَّائِمُونَ الَّذِينَ لَقُوا السَّيْلَ وَتَقَطَّعُوا السَّيْلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٢﴾ «العنكبوت»، ومساكنهم كما ورد في «العهد القديم» عبارة عن قرى «سدوم، عمورة، أدومة، صبييم» في منطقة البحر الميت، اعتبر الله أنهم أفسدوا بذلك، أي مارسوا في الجانب الجنسي ما يخل ويخالف الغرض الذي من أجله خلقت هذه الغريزة، وما يخالف التشريع الذي وُضع بما فيه صلاحهم، بل اعتبرها الله (فاحشة)، أي فعلاً قد عظمُ قبحه.

وإذا كان المراد من قوله «تعالى»: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ هو ابتداعهم لهذا الفعل الشاذ، فسيعود تاريخه إلى أكثر من ٣٥٠٠ سنة، لأن لوطاً «عليه السلام» معاصر للخليل إبراهيم «عليه السلام»، وإذا كان المراد أنهم أول من جاهر وأشاع هذه الرذيلة ومارسها علناً بلحاظ قوله عز وجل: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ فسيكون تاريخها أقدم من ذلك كما رجَّح ذلك بعض علماء التاريخ، إذ قالوا أن الآشوريين والبابليين والمصريين والهنود مارسوا ذلك.

ولكن يبدو أن الآية القرآنية تبين أنهم مبتدعو هذه الفاحشة حيث أنّ ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ تخص أصل الفعل لا الممارسة العلنية، والأقوام المذكورة هنا تأتي في موازاة عهد النبي لوط ع وبعده.

• التلاعب في المفاهيم:

ومن الخزي بالنسبة إلى بعض الأمم أن اعتبرت ممارسة هذه الفاحشة من علامات التحضر والرقى والمكانة المرموقة في المجتمع، فقد نص المؤرخون على أنّ الإغريق مارسوا هذه الرذيلة في خصوص الأوساط العلمية والفكرية! وهكذا تعود اليوم بعض المجتمعات لذات النغمة، معتبرة أنّ المجتمع المتقدم والمتحضر هو الذي يكفل لهم الحق بالزواج الرسمي، ويقرّ تكوين الأسر المتشكّلة منهم، ويقتنّ تبنيهم للأطفال تعويضاً عن عدم الإنجاب!

الديانات السماوية حاربت هذه الفاحشة، ففي العهد القديم: (إذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعل كلاهما رجساً. إنهما يُقتَلان. دمهما عليهما) «العهد القديم، سفر اللاويين، ١٨: ٢٢».

وفي العهد الجديد: (لا تضلّوا، لا زناة، ولا عبدة أوثان، ولا

فاسقون، ولا مابونون، ولا مضاجعو ذكور) «العهد الجديد، رسالة بولس إلى أهل كورنثوس، ٦: ١٠».

ولكن مع هذا، صدر عن بعض الكنائس القول بالتفريق بين مَنْ له مجرد ميل تجاه الجنسية المثلية دون ممارستها، وبين من يمارس الجنسية المثلية فعلياً، فحرمت هذا الفعل على الأخير، وأظهرت التسامح على الأول!

ويبدو أن ممّا ساهم في تغيير الكنيسة لموقفها هو ممارسة بعض الكهنة لها، والفضائح المترتبة على ذلك كما انعكس إعلامياً مؤخراً أيضاً، واستدعى تقديم استقالات بعضهم، ولذا قدّم أحد هؤلاء ما يبرر ميله الجنسي معتبراً أن البتولية موجهة بالذات إلى الكهنة المغايرين للجنس، وهي مطلوبة منهم فقط، وعليهم الحفاظ عليها حسب ما تسمح لهم قدرتهم على تحملها. أما الكهنة المماثلين للجنس فهم يفتخرون بهذا التوجّه الجنسي!

والواقع أن هذا فساد لتبرير الفساد.

وبنفس هذا المسار الكنسي للتعامل مع هذه الفاحشة، هناك مسار مشابه في العالم الإسلامي والعربي. فالموقف الديني الإسلامي استمرّ واضحاً وحاداً تجاه هذه الفاحشة

إلى أن دخلت بعض الطرق الصوفية على الخط، وعلى أثر الدعوة للزهد بالدنيا وملذاتها وفق النظرة الصوفية الخاصة، امتنع بعض رجالهم عن الزواج، لاسيما مع انقطاعهم عن المجتمعات وتقضيلهم العزلة مع بعض مريديهم. وهذه المخالفة للفطرة الإلهية جرّت بعضهم للوقوع في محظور شنيع.

ولنقرأ هذا النص الصادر عن أحد شيوخ الصوفية توضيحاً للفكرة مع شئ من الاختصار تجنباً للإطالة، فبعد أن ييؤّب الموضوع تحت عنوان: (في ذكر عشق الظرفاء والفتيان للأوجه الحسان) ويذكر انقسام الآراء حوله يبدأ بسرد المبررات التي - بحسبه - تجعل الأمر فطرياً طبيعياً بل ومن دلالات التحضر والسمو الروحي، قال: (هذا العشق - أعني الالتذاذ الشديد بحسن الصورة الجميلة والمحبة المفرطة لمن وجد فيه الشمائل اللطيفة وتناسب الأعضاء وجودة التركيب- لما كان موجوداً على نحو وجود الأمور الطبيعية في نفوس أكثر الأمم من غير تكلف وتصنع، فهو لا محاله من جملة الأوضاع الإلهية التي يترتب عليها المصالح والحكم، فلا بد أن يكون مستحسنًا محموداً، سيما وقد وقع

من مباد فاضلة لأجل غايات شريفة. أما المبادي فلأننا نجد أكثر نفوس الأمم التي لها تعليم العلوم والصنائع اللطيفة والآداب والرياضيات مثل أهل الفارس وأهل العراق وأهل الشام والروم وكل قوم فيهم العلوم الدقيقة والصنائع اللطيفة والآداب الحسنة غير خالية عن هذا العشق اللطيف... ولكن وجدنا سائر النفوس الغليظة والقلوب القاسية والطبائع الجافية من الأكراد والأعراب والترك والزنج خالية عن هذا النوع من المحبة، وإنما اقتصر أكثرهم على محبة الرجال للنساء ومحبة النساء للرجال طلباً للنكاح والسفاد كما في طباع سائر الحيوانات المرتكزة فيها حب الازدواج والسفاد).

ثم قدّم تبريراً آخر يتعلق بالغاية منه قائلاً: (وأما الغاية في هذا العشق الموجود في الظرفاء وذوي لطافة الطبع فلما ترتب عليه من تأديب الغلمان وتربية الصبيان وتهذيبهم وتعليمهم العلوم الجزئية كالنحو واللغة والبيان والهندسة وغيرها والصنائع الدقيقة والآداب الحميدة والأشعار اللطيفة الموزونة والنغمات الطيبة وتعليمهم القصص والأخبار والحكايات الغريبة والأحاديث المروية

إلى غير ذلك من الكمالات النفسانية... فمن أجل ذلك أوجدت العناية الربانية في نفوس الرجال البالغين رغبة في الصبيان وتعشّقاً ومحبة للغلمان الحسان الوجوه).

ثم حاول تأكيد ما سبق من خلال النظر في الآثار الناتجة عنه: (و لعمري إن هذا العشق يترك النفس فارغة عن جميع الهموم الدنياوية إلا همّ واحد... وهو يرقق القلب ويذكي الذهن وينبه النفس على إدراك الأمور الشريفة).

ثم استشهد بسلوك شيوخ الطريقة وتوصياتهم: (ولأجل ذلك أمر المشائخ مريديهم في الابتداء بالعشق، وقيل العشق العفيف أو في سبب في تلطيف النفس وتوير القلب. وفي الأخبار أن الله جميل يحب الجمال، وقيل: مَنْ عَشَق وَعَفَ وَكَتَمَ وَمَاتَ، مَاتَ شَهِيداً).

نعم استدرك لاحقاً لبيان أنّ مثل هذا العشق يخصّ مرحلة فقط من مراحل السلوك، فمتى ما ارتقى السالك إلى مراتب أعلى فلا ينبغي حينئذ الاستمرار في مثل هذا العشق: (ينبغي استعمال هذه المحبة في أواسط السلوك العرفاني، وفي حال ترقيق النفس وتنبيهها عن نوم الغفلة ورقدة الطبيعة وإخراجها عن بحر الشهوات الحيوانية، وأما

عند استكمال النفس بالعلوم الإلهية وصيرورتها عقلاً بالفعل محيطاً بالعلوم الكلية ذا ملكة الاتصال بعالم القدس، فلا ينبغي لها عند ذلك الاشتغال بعشق هذه الصور المحسنة اللخمية والشمائل اللطيفة البشرية لأن مقامها صار أرفع من هذا المقام... ولا يبعد أن يكون اختلاف الأوائل في مدح العشق وذمه من هذا السبب الذي ذكرناه، أو من جهة أنه يشتهب العشق العفيف النفساني الذي منشؤه لطافة النفس واستحسانها لتناسب الأعضاء واعتدال المزاج وحسن الأشكال وجودة التركيب بالشهوة البهيمية).

وأخيراً فقد خطأ رأي الرافضين لهذا النوع من العشق وحججهم: (وأما الذين ذهبوا إلى أن هذا العشق من فعل البطالين الفارغي الهمم فلأنهم لا خبرة لهم بالأمور الخفية والأسرار اللطيفة ولا يعرفون من الأمور إلا ما تجلى للحواس وظهر للمشاعر الظاهرة، ولم يعلموا أن الله «تعالى» لا يخلق شيئاً في جبلة النفوس إلا لحكمة جليلة وغاية عظيمه. وأما الذين قالوا إنه مرض نفساني أو قالوا إنه جنون الهي فإنما قالوا ذلك من أجل أنهم رأوا ما يعرض للعشاق من سهر الليل ونحول البدن وذبول الجسد وتواتر النبض وغور العيون

والأنفاس الصعداء مثل ما يعرض للمرضى، فظنوا أن مبدأه فساد المزاج واستيلاء المُرّة السوداء، وليس كذلك بل الامر بالعكس...» («الحكمة المتعالية، ج ٣، ص ١٧١-١٧٦»).

فأي فرق بين هذا الكلام وبين ما جاء على لسان بعض كهنة الكنيسة؟

• فلاسفة والفساد الأخلاقي:

وإذا عدنا إلى المجتمعات الغربية وجدنا أنه بموازاة السعي الكنسي لتبرير هذه الفاحشة، عمل بعض الفلاسفة الغربيين العلمانيين -مع ابتعاد الغرب عن الحكم الديني- وكذلك بعض المحللين النفسيين على تجميل الصورة القبيحة لهذه الفاحشة في المنظور العام، بل وتقديم المبررات (النفسية) و (الوراثية) و (البيئية) التي فتحت المجال لشرعنتها ووضع القوانين الخاصة بها.

وأخيراً تم الاعتراف بالزيجات الحاصلة بين الشاذين رسمياً، بما في ذلك إعطاؤهم حق التبني!

وتعود هذه الفاحشة إلى مجتمعاتنا العربية والإسلامية بثوب جديد، فبعد أن كانت تُقْبَح في مجتمعاتنا صارت من عناوين (الحرية الشخصية) تماشياً مع التقليلة الغربية،

وحملات تطبيع الشذوذ، وأمسى المتشبهون بالنساء يظهرون علناً، وتجدهم يعملون في الإدارات الحكومية والأسواق وحتى المدارس والمستشفيات بظاهر المتحوّل! كما يقومون بنشر مقاطع الفيديو والصور الخاصة بحفلاتهم وما إلى ذلك على الإنترنت دون حياء!

ويأتي هذا كله مصحوباً بدعم من بعض المؤسسات الدولية، وجمعيات الدفاع عن حقوق الشاذين في العالم. وقد تجلّى هذا الدعم في مواقف عدة، من بينها الموقف الذي حدث في العام ٢٠٠٨، عندما قامت ١١٧ منظمة تعمل في مجال الصحة وحقوق الإنسان بالاعتراض على حكم محكمة جنح قصر النيل التي قضت بالحكم ٥ سنوات على خمسة مصريين، بتهمة الشذوذ.

ومنها أيضاً اعتراض منظمة (هيومان رايتس ووتش) على قيام السلطات السعودية في عام ٢٠٠٩ باعتقال ٦٧ رجلاً في العاصمة الرياض بسبب ارتدائهم ملابس نسائية في إحدى الحفلات!

هذا الدعم الذي يناله هؤلاء الشاذون يساهم في تزايد عددهم في العالم العربي والإسلامي دون شك.

• عوامل الانتشار:

من الملاحظ خلال السنوات الأخيرة تزايد النشاط في مجال (تطبيع الشذوذ الجنسي) في العالم الإسلامي... والتطبيع يعني جعل المسألة طبيعية ومتقبّلة بعد أن كانت مأزومة أو غير متقبّلة أو محارّبة، تماماً كما يتحدثون عن تطبيع العلاقة مع الكيان الصهيوني.

وقد قام أحد الأخصائيين في علم النفس العصبي (مارشال كرك) بالتعاون مع مدير تنفيذي للتسويق والإعلان الاجتماعي (هنتر مادسن) بنشر كتاب يحمل عنوان

After the Ball : How America Will Conquer Its
Fear and Hatred of Gays in the 90's

بعد الكرة: كيف ستنتصر أمريكا على مخاوفها وكراهية
المثليين في التسعينيات!

هذا الكتاب يتضمن تفاصيل استراتيجية تطبيع الشذوذ في الولايات المتحدة التي كانت في ذلك الوقت بصورة إجمالية ذات طابع محافظ، ومعارض أيضاً للشذوذ. ولكن أمكن من خلال هذه الاستراتيجية وفي غضون عقدين من

الزمان قلب الوضع رأساً على عقب بحيث أصبح الاحتفال بكل أشكال الشذوذ الجنسي أمراً طبيعياً وعلنياً. هذه الاستراتيجية مع بعض التعديلات الطفيفة يتم تطبيقها الآن على المجتمعات الإسلامية، وكالتالي:

١. الحديث عن الشذوذ والشاذين -بمسميات مقبولة- بشكل مستمر قدر الإمكان وبصورة علنية وبصوت مرتفع. والهدف هو إزالة حساسية الناس تجاه هذه القضية، بحيث يبدو الشذوذ أمراً طبيعياً وجزءاً من نمط الحياة الطبيعية، وأنه ليس سوى صورة من صور التنوع في أذواق الناس لا أكثر. والسبيل لتحقيق ذلك هو إقحامهم بشكل سافر ومكثف في عالم الثقافة والإعلام، كالأفلام والبرامج التلفزيونية والكتب والموسيقى وإجراء المقابلات معهم، مع التركيز على شذوذهم.

٢. إظهار الشاذين كضحايا لمجتمعاتهم، لا كأفراد متمردين على المجتمع وقيمه. فما يسمى (الحملات المضادة لاضطهاد المثليين والتمتر عليهم) هو جزء من هذه الاستراتيجية، والغرض منه إظهارهم بصورة ضحايا للمجتمعات المتزمتة، وأنهم بحاجة إلى دعم وإنقاذ وحماية.

وفي هذه الحملات يتم التركيز على أن الشاذ إنسان ناشط في الحياة وعنصر مفيد في المجتمع، وأنه طبيعي من كل الجهات، كل ما في الأمر أنه ضحية من ضحايا التتمّر.

وبهذه الطريقة يتم توجيه الرأي العام عند المسلمين لصالحهم، فبعد أن كان الشذوذ أمراً قبيحاً وصاحبه ملعون، لا سيما بلحاظ قصة قوم النبي لوط في القرآن والتوراة، وأن الشواذ هم المعتدون على المجتمع وقيمه، يتم تقديمهم الآن على أنهم ضحايا.

٣. تقديم الحجج والمبررات للمدافعين عن الشذوذ. فعنوان (التنوع في المجتمع) مثلاً من العناوين الأصيلة في منظومة القيم الإسلامية، ولذا يتم الانطلاق من هذا المفهوم لإقناع المسلمين بأن الشذوذ الجنسي جزء من هذا التنوع.

(حفظ حقوق الآخرين) من العناوين الأصيلة في منظومة القيم الإسلامية، ومن أدوات تحقيق العدالة، ومن هنا يتم الحديث عن حقوق الشواذ وضرورة حفظها.

فالمهدف هنا هو تغيير محور الخطاب من خطاب للدفاع عن الشذوذ، إلى خطاب للدفاع عن الحقوق والعدالة... فالمسلم إن لم يدافع عن الشذوذ، فإنه سيدافع عن مكافحة

التمييز والعدالة وحفظ الحقوق وما إلى ذلك. مثل هذا الخطاب سيكون أكثر جاذبية للمسلمين.

٤. استعمال علم النفس العكسي، وهو أسلوب يُستخدم لإقناع شخص للقيام بسلوك ما عن طريق تأييد العكس تماماً. يُظهر المتحدث نفسه في موقف المخالف ولربما المعادي، ولكنه يمرر في الأثناء وبأساليب خفية وبالتلميحات ما يريد تمريره. فمن خلال التركيز على أن الشذوذ محرّم وقبيح، سيُظهر المتحدث بصورة المدافع الشرس عن القيم الإسلامية، ولكنه في نفس الوقت يتحدث مثلاً عن أنهم أصبحوا أمراً واقعاً، وأن هذا الأمر كان موجوداً في عهد النبي وما بعده، فكيف ينبغي التعامل معهم؟ هل يجوز أن تُهضم حقوقهم؟ بهذه الصورة يتم تسويق الشذوذ ولو جزئياً في المرحلة الأولى، لتتطور الأمور لاحقاً لربما إلى قبول كامل وبالتالي إلى تطبيع الشذوذ.

٥. شيطنة المعارضين للشذوذ وإظهارهم بصورة الظلمة الرجعيين المتعصبين أصحاب الشخصية القمعية، بحيث يتم دفع الإنسان العادي إلى تجنبّ فرزه ضمن هذه المجموعة من خلال عدم إبداء الرأي أو الحيادية أولاً، ثم تأتي الخطوة

اللاحقة تدريجياً بجرّه إلى الموقف المؤيّد.

٦. اتخاذ الخطوات القانونية -وبالتدرّج- نحو شرعة الشذوذ. ففي كثير من الدول الإسلامية هناك قوانين تجرّم الشذوذ، وتُعاقب على ممارستها، تماماً كما كان الوضع في كثير من الدول الغربية، ولكننا نشهد اليوم أن عديداً من تلك الدول تغيرت فيها القوانين الخاصة بذلك بحيث أصبح زواج الشاذين معترفاً به... هذا التغير لم يحدث بشكل مفاجئ وفوري، بل بصورة تدريجية، وعليه يتم:

أ) مهاجمة العقوبات الإسلامية المذكورة في الفقه الإسلامي.

ب) الضغط على الدول المجرّمة للشذوذ وتصنيفها ضمن الدول التي لا تحترم حقوق الإنسان.

ج) تقنين وشرعة إنشاء بيئات اجتماعية خاصة بالشواذ كالنوادي الاجتماعية وأماكن الترفيه.

د) سن القوانين الخاصة بحماية أفرادهم.

هـ) سن قوانين لتجريم من يعادي الشواذ تحت عنوان تجريم خطاب الكراهية والتمييز.

(و) إقحام ذلك كله في المناهج الدراسية.

(ز) سن قوانين لحماية الأبناء -الذين يختارون تغيير جنسهم- من أبويهم!

وهناك عوامل عديدة باتت اليوم تساهم في زيادة نسبة المجاهرة في فعل الشذوذ الجنسي، ومن هذه العوامل:
١- العوامل الخارجية:

أ - دور الأمم المتحدة ومنظماتها: بدأ تركيز الأمم المتحدة على تشريع الشذوذ الجنسي في العام ١٩٥١. مع فرض معاهدة الأمم المتحدة للاجئين على الدول تأمين الحماية لأي شخص لديه خشية من (التعرض للاضطهاد نتيجة أسباب عرقية أو دينية أو ترتبط بهويته الجنسية، بانتمائه إلى مجموعة اجتماعية معينة، أو بسبب رأيه السياسي).

وبعد ذلك بات موضوع الشذوذ يأخذ طابعاً أكثر تخصصية مع تلك المؤتمرات والاتفاقيات الدولية التي تعنى بالأمور الجنسية. وفي ديسمبر ٢٠٠٨ وقّع ٦٦ بلداً في الجمعية العامة للأمم المتحدة بياناً يتعلق برفع العقوبة عن (المثلية).

ب - الدعم الدولي للشاذين جنسياً: فقد فتحت لهم بعض الدول باب اللجوء، ومن بينها (الكيان الصهيوني) الذي أصبح قبلة الشاذين! وهؤلاء غالباً ما يقعون ضحية للاستخبارات الإسرائيلية، أو يتحولون إلى تعاطي البغاء من أجل كسب قوتهم بعد أن رفضهم مجتمعهم.

ج - دور الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي والنقل السريع للمعلومة والمواد الإعلامية، وبكل يسر، وفي متناول كل الأعمار، وبأقل الأثمان، فاختلط الحابل بالنابل، وفتحت آفاق لا أول لها ولا آخر في الترويج لكل المفاصد الأخلاقية بما في ذلك الشذوذ الجنسي، فتحوّلت هذه الوسيلة إلى سلاح ذي حدين، فهي من جهة تخدم العلم والمعرفة والتواصل الإيجابي، ومن جهة أخرى تتوفّر أدوات هدم كل القيم والمبادئ والأسس ابتداءً من الإيمان بوجود الله «سبحانه»، وامتداداً إلى كل مضردات الإيمان والأخلاق والمفاهيم والتاريخ والقوانين وغيرها.

٢. العوامل الداخلية:

أ - الأسرة التي ينشأ فيها الطفل تنشأة خاطئة بالسماح للذكور باللعب بألعاب البنات وإلباسهم لباس الفتيات،

وكذلك تسمية البنات بأسماء الذكور، وأمثال ذلك.

ب - تعرّض الطفل في صغره إلى التحرش الجنسي.

ج - غياب التوعية والرقابة على سلوك الطفل وصدقاته.

د - دور الأدب والإعلام في التشجيع على ذلك، من خلال تغيير المسميات وإبراز المبررات وتجميل الصورة وتهوين الأمر وتقديمه بصورة علنية واضحة. وقد تحدث كتاب (الشذوذ الجنسي في الأدب المصري) للكاتب مصطفى بيومي، عن مديات تناول موضوع الشذوذ بصراحة في كتابات بعض الأدباء المعاصرين أمثال (علاء أسواني) و(نجيب محفوظ) و (يحيى حقي).

بالطبع، لابد من التنبيه هنا إلى أننا لا نتحدث عن حالات نادرة جداً يولد معها الطفل (خنثى).

والخنثى لغة مأخوذ من الانخاث، وهو: التثني والتكسر، أو من: خنث الطعام إذا اشتبه أمره، فلم يخلص طعمه. والمراد به هنا خصوص من له فرج الذكر والأنثى.

والخنثى من الناحية الفقهية قسمان: خنثى مشكل، خنثى غير مشكل. الخنثى غير المشكل هو من ترجّحت فيه صفة

الذكورة، أو صفة الأنوثة، وذلك كأن تزوج فولد له ولد، فهذا رجل قطعاً، أو تزوج فحملت، فهي أنثى قطعاً. أما الخنثى المشكل فهو الذي لم تتضح ذكورته، من أنوثته.

كما أننا لا نتحدث عن المصاب بما يُعرف بعنوان (متلازمة كلاينفلتر) الوراثة عندما يولد ذكر بنسخة إضافية من كروموسوم إكس، وغالباً ما لا تُشخص حتى مرحلة البلوغ، وقد تؤثر سلباً على نمو الخصية؛ مما يؤدي إلى خصيتين أصغر من المعتاد، وانخفاض إنتاج هرمون التستوستيرون، وفي كتلة العضلات، وتقلص شعر الجسم والوجه، وتوسيع أنسجة الثدي.

أو الفتاة المصابة بما يعرف بعنوان (متلازمة تيرنر) حيث تولد بنقص في كروموسوم X (كروموسوم الجنس) كلياً أو جزئياً، مما قد يؤثر على وظائفها الجنسية الأنثوية الفسيولوجية، كما وقد تواجه مشكلات في النمو.

فأن يولد الطفل مصاباً بشئ مما سبق، لا يعني تصنيفه ضمن الشواذ جنسياً، ممن يختارون ممارسة الشذوذ نتيجة بعض العوامل الداخلية أو الخارجية المؤثرة، أو الانسياق وراء شهواتهم بصورة لا محدودة، وقد تم توضيح مجموعة

من المسائل الشرعية الخاصة بالحالات الاستثنائية السابقة ضمن الكتب الفقهية المفصلة.

• الآثار الناجمة عن الشذوذ الجنسي:

١. الخلل في القيم والمعايير الدينية والأخلاقية، وزيادة الاستهتار بالدين، لأنه يحرم الشذوذ بكل أنواعه. ومع تفشي هذا الخلل تكثر الجرائم بكل أنواعها من قتل، وسرقة، وإدمان الخمر، وتعاطي المخدرات، والاعتداء على الأطفال، وغير ذلك.

٢. انتشار الأمراض بين الشاذين جنسياً، وانتقالها إلى غيرهم أيضاً، وقد تحدث النبي «صلى الله عليه وآله» في المروي عنه أنه قال: (لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا) «وسائل الشيعة، ح ٢١٥٤٩».

ومن هذه الأمراض تلك المنتقلة بالجنس: الأيدز - الأمراض الزهرية - الوباء الكبدي - متلازمة أمعاء الشواذ - الحمى المضخمة للخلايا - جدري القروء، وغيرها.

٣. تقويض عرى الأسرة، وتغير أشكالها الطبيعية المكونة من امرأة ورجل وأطفال، كما يساهم في زيادة نسبة المشكلات

الاجتماعية من عنوسة وطلاق وزنى وغيرها.

• تنبيهات لمواجهة الشذوذ:

١. مشروع تطبيع الشذوذ بحاجة إلى مواجهة استراتيجية. فلماذا لا نملك نحن استراتيجية مضادة؟ هم يفكرون ويخططون ويجربون ويصححون أخطاءهم ويوظفون أدواتهم ويجمعون المال ويكملون المشوار على مدى عقود... فما بال المسلمين لا يقومون بمثل ذلك؟ بل كان من المفترض أن نملك استراتيجية مسبقة لاستراتيجيتهم، نعمل من خلالها على الوقاية، لا أن يأتي موقفنا كردة فعل ومعالجة. وأي عمل استراتيجي من هذا النوع يفترض وجود جهة تقوم بهذا الدور، والمسلمون لا يملكون هذه الجهة... لا المرجعيات الدينية في المذاهب المختلفة تقوم بذلك، حتى لو افترضنا جِدلاً أنها تملك المقومات للقيام بهذا الدور، ولا الحركات الإسلامية الفارقة إلى أذنيها في السياسة والسعي للوصول إلى الحكم هنا وهناك والمناكفات الطائفية وغير ذلك، ولا المنظمات والجماعات والهيئات الإسلامية الخاضعة لسياسات دول، أو الغائبة عن الوعي، أو الفاقدة لمصادقيتها.

ثم إنَّ كل مشروع بحاجة إلى تمويل. هناك أطراف وعوامل عديدة جعلت المنطقة غارقة في السنوات الأخيرة في المآسي الإنسانية، مما أجبرت الجهات الخيرية على العمل على إنفاق جُلِّ ما يوجد به الناس من أجل رفع جزئي جداً من المعاناة بسبب الحروب والتهجير والسياسيين الفاسدين. وحتى هذه الجهات الخيرية يُضَيَّق عليها بعناوين مختلفة مما يفاقم المعاناة الإنسانية... والحقوق الشرعية كالأخماس والزكوات لا تغطّي إلا جزءاً من حاجات المحتاجين، هذا فضلاً عن غياب العمل المؤسسي والفكر الاستثماري لدى غالبية الجهات المسؤولة عن توظيف هذه الأموال. قبل سنوات، كنا نشهد مؤتمرات دولية تقوم بها جهات غير رسمية، ودورات توعوية تطوعية، وأمثال ذلك، وهذه بحاجة إلى تمويل... وللأسف فإنَّ الإنسان الذي يحمل حس المسؤولية يقف حائراً بين أن يسد جوعة مضطهد، ويحفظ عفة سيدة تريد تأمين خبز عيالها، وينقذ يتيماً من التشردّ وسوء الاستغلال، وبين أن يقوم بنشاط ثقافي أو إعلامي أو تربوي أو ما شابه. نعم، الإفلاس من ذلك لا يعني أن نقف مكتوفي اليدين، بل علينا العمل، وتحمل المسؤولية

كي نكون معذورين أمام الله، ولربما ننجح في المهمة.

وبرأيي أننا بحاجة ماسة إلى صدور كتاب ذي قيمة علمية يقوم عليه بعض العلماء من ذوي الاختصاص، يكون أساساً مرجعياً لمن يواجهون هذا المشروع الخبيث مع الالتفات إلى التركيز على المضمون العلمي للكتاب. الطرف الآخر المروّج للمشروع يلجأ إلى بعض الأبحاث والدراسات والمقالات ذات الطابع العلمي التي تُظهر الشذوذ وكأنه حالة طبيعية أو نتاج موروث جيني، لا أنه سلوك اختياري منحرف، ولا حتى حالة مرضية تحتاج إلى معالجة. فمثل هذا الطرح لا يواجهه بآيات قرآنية أو مواضع، بل لابد من عملية تحشيد لبحوث ودراسات ومقالات ذات طابع علمي معارض للنظرة المروّجة للشذوذ، ويتم جمعها وتوثيقها وعرضها في هذا الكتاب المقترح، على أن يقوم بذلك أهل الاختصاص من أطباء ونفسانيين وعلماء اجتماع وتربية، لا علماء الدين، ولا الهواة، ولا أصحاب برامج تنمية الذات، ولا الباحثين عن الشهرة في عالم السوشيال ميديا. ثم يدعم كل ذلك بسلسلة من المقاطع المسجلة المخرجة بشكل احترافي لتُبث عبر وسائل التواصل، وبأكثر من لغة، وذلك لإكساب مشروع المواجهة ثقلًا ومصداقية

علمية، مع العناية بالأرقام والإحصائيات الدقيقة والعلمية، وتوظيف عدد كبير من الشباب للنشر والمتابعة.

٢. ضرورة التشديد على استخدام المصطلح الذي يُظهر قبح صورة هذه الفاحشة، وعدم استبدالها بمصطلحات من قَبْل (المثلية الجنسية).

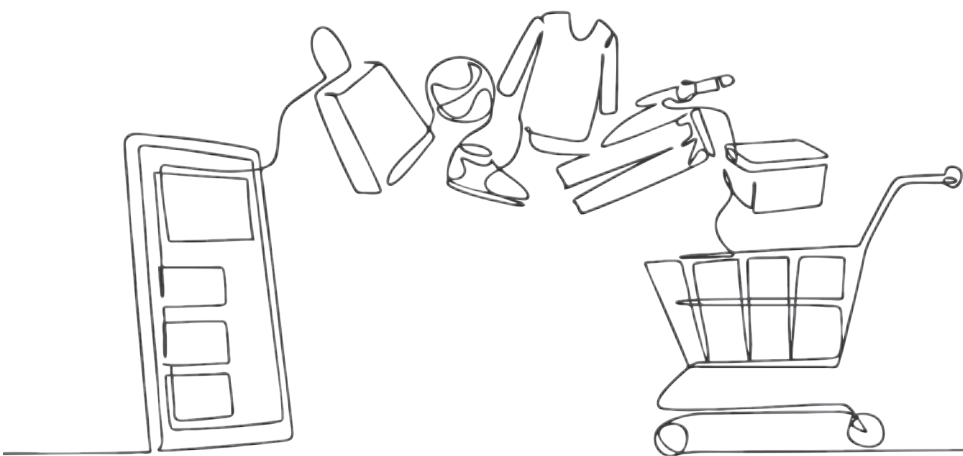
٣. العمل على تعديل القانون المحلي لبعض الدول العربية التي لا تنص على عقاب الشذوذ إلا في حالة عدم رضا أحد الأطراف، مع ضرورة تغليظ العقوبة على مرتكبيها، وعدم شرعنة وجودهم.

٤. أهمية التصدي للمطالبات الدولية بتعديل مناهج التدريس حتى تتناسب مع التوجه العالمي الذي يدعو إلى تقبل الشذوذ الجنسي وتقنينه.

٥. التركيز على مبادئ التربية الأسرية الصحيحة، ومراعاة آداب السلوكيات من قبيل التفريق بين الأبناء في المضاجع، وتعليمهم الاستئذان قبل الدخول، وإبعاد الأولاد عن أجواء الميوعة وغيرها.

٦. إيجاد الحلول الاجتماعية والاقتصادية لمسألة العنوسة وتأخر الزواج.

٧. متابعة الأبناء في ثقافتهم وأفكارهم ومصادرهم ومدى ضبط عملية استعمال الإنترنت من قبلهم، والسعي لمعالجة الإشكالات التي يثيرونها أولاً بأول، ومحاولة زرع المفاهيم الصحيحة وترسيخها، وتدعيمها بالحُجج والأدلة المنطقية والعلمية، ومناقشة الأبناء حولها.





الفساد في التجارة

هناك تركيز قرآني على استعمال كلمة (الفساد) باشتقاقاتها عند الحديث عن قصة النبي شعيب «عليه السلام» مع قومه وموقفه من الغش التجاري الذي كانوا يمارسونه، فلاحظ:

﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا

عَوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ ۖ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ
الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ «الأعراف».

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْنَؤُا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ
مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ
وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٦﴾ وَيَقُومُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ
وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٨٧﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا
عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿٨٨﴾﴾ «هود».

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا
تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ وَمَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ * أَوْفُوا
الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ
﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾
وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحَبْلَةَ الْأُولَىٰ ﴿١٨٤﴾﴾ «الشعراء».

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَبْنَؤُا عِبَادُ اللَّهِ وَارْجُوا
الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ «العنكبوت».

فما السر في ذلك؟

• أهمية الأمن الاقتصادي:

الأمن الاقتصادي هو جزء مهم لتحقيق أمن المجتمع ونموه ورخائه، وفقدان ذلك يعني فتح الباب على مصراعيه لكي ينخر الفساد الاجتماعي والأخلاقي والسياسي والإداري في أسس المجتمع، لتكون النتيجة هي الانهيار، سواء من خلال نشوب الصراعات الداخلية بين طبقات المجتمع المتكوّنة نتيجة ذلك الفساد، أو من خلال الغزو الخارجي الذي يطمع في الكيانات الضعيفة أو للانتقام من السلوك الاقتصادي الفاسد لذلك المجتمع، أو نتيجة التهرؤ الداخلي لكيان ذلك المجتمع بما يؤدي إلى تعاقب الكوارث الناجمة عن سوء الإدارة والإهمال والتراخي في العمل وما إلى ذلك.

وهذا ما جرى لقوم سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ^{١٦} جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ وَبَلَدُهُ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ^{١٧} فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ^{١٨} ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ^{١٩}﴾ «سبأ».

فبعض الأخبار تتحدث عن فئران نخرت في السد فتهدم وأغرق المملكة ودمرها، فإن صح ذلك، فهل يمكن

لها أن تنخر سداً عظيماً في ليلة؟ لا بد أن ذلك تم في مدة طويلة، فلم لم يلاحظ ذلك أحد؟ أليس هو التراخي والإهمال والفساد؟ ففي مملكة كسباً تعتمد في الأساس على مشروع ضخم وحيوي كالسد لا بد وأن تكون هناك جهة مسؤولة عنه للصيانة والمتابعة، فكيف لم تكتشف تواجد الفئران ودورها التخريبي؟ وإلى أي مدى كان للتراخي والفساد دور في تلك الفاجعة التي أنهت حضارتهم؟

ولم يقتصر إفسادهم على الداخل، بل جاوزه إلى المجتمعات الصغيرة والمستضعفة التي كانت تقع في طريق التجارة إليهم: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝١٩﴾ «سبأ»، ولعل ما ورد بصيغة الدعاء في الآية إنما يمثل لسان حالهم، حيث عملوا على تدمير تلك القرى اقتصادياً وأمنياً حسداً منهم وبغياً، وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً بما يعود على سبأ بالفائدة المطلقة، وغاب عنهم أن دمار هذه القرى سيؤثر سلباً على حركة القوافل التجارية التي تحتاج إلى محطات

استراحة وتزود بالطعام والماء والاحتياجات الضرورية، بالإضافة إلى ما تمثله تلك القرى من ضمانة أمنية للقوافل المسافرة، على عكس الطرق الفارغة تقريباً من المجتمعات السكانية التي يكثر فيها اللصوص وقطاع الطرق.

وقد تحدث القرآن الكريم عن المنّ الإلهي على قريش من جهة الأمن الاقتصادي الذي حقق لهم الأمن الاجتماعي حيث قال «تعالى»: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَعَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ «قريش»، والذي نلاحظ فيه وجود التلازم بين النشاط الإنساني التجاري وبين الأمن والاستقرار.

وقدّم صورة مقابلة لذلك حيث قال «تعالى»: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۝١١٢﴾ «النحل».

• مقوّمات النجاح:

قد يتصور البعض أن المعاملة التجارية الناجحة (بيع، شراء، إجارة، مضاربة، شركة.. إلخ) مجرد حنكة وشطارة وجرأة ومعاملات حسابية دقيقة ودراسة جدوائية وحسن

معاملة وأمثال ذلك، إلا أنّ الواقع يؤكد على أنها تحتاج بشكل كبير إلى الصدق في التعامل، والوفاء بالعهود والمواثيق، والالتزام بالأمانة، وعدم التجاوز على حقوق الآخرين. وهذا كله من العوامل المهمة التي تضمن النشاط والفاعلية للتعاملات التجارية والاقتصادية، من خلال ضخّ المزيد من الأموال وتوفير القدرة المالية وتحقيق زيادة الإنتاج، والتداول في نوعية الإنتاج الجيد، والتنافس في هذا الأداء.

ثم إن التزام الصدق والأمانة في عالم التجارة والاقتصاد له مردوده الاجتماعي من خلال شيوع قيم الثقة والصدق والأمانة وحسن الظن في المجتمع، مقابل قيم الجشع والظلم والاعتداء وسوء الظن بين أفراد المجتمع، وهي من المسائل المهمة في حفظ المجتمع واستقراره أمام العوامل المؤدية لزعزعة الروابط الاجتماعية وتماسك المجتمع، وتهدد استقراره، وهو من أوضح صور الفساد في الأرض.

• حقوق الناس:

الإسلام يهتمّ كثيراً بمسألة حقوق الناس، ولا يسمح بسلب أو انتقاص الحقوق من دون وجه حق، واعتبر ذلك من أشدّ الظلم، ففي نهج البلاغة روى الشريف الرضي عن علي

«عليه السلام»: (فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْرًا فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرًّا فَادْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ «صلى الله عليه وآله» كَانَ يَقُولُ: «يَا بَنَ آدَمَ، اْعْمَلِ الْخَيْرَ وَدَعْ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ. أَلَا وَإِنَّ الظَّلْمَ ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَا يَغْفَرُ، وَظُلْمٌ لَا يَتْرَكُ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَا يَطْلُبُ: فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللَّهِ، قَالَ اللَّهُ «تعالى»: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ٤٨، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يَغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضَهُمْ بَعْضًا. لَيْسَ هُوَ جَرَحًا بِالْمَدَى وَلَا ضَرْبًا بِالسَّيَاطِ، وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذَلِكَ مَعَهُ) «نهج البلاغة، خ ١٧٦».

ولذا نجده «عليه السلام» حساساً شديداً من هذه الناحية في علاقته مع الآخرين، حتى قال: (وَاللَّهُ لَأَنَّ أَيْتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ «نوع من الشوك» مُسَهِّدًا «مقيداً»، أَوْ أُجِرَّ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفِّدًا، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِبًا لَشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ).

ثم يرتقي في ذلك معتبراً أن الظلم في نفسه قبيح ولو بحق الكائنات الأخرى المستحقرة، ولذا يتنزه عن ظلمها

ولو بمثل الصورة التالية التي لا نقيم لها وزناً، ولكنه يقيم لها وزناً أعظم من خيرات الأرض كلها: (وَاللَّهُ لَوْ أُعْطِيَ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاحُهَا، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّهُ فِي نَمَلَةٍ أَسْلُبُهَا جَلَبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلَتْهُ) «نهج البلاغة، خ ٢٢٣».

• الفساد المالي:

من هنا نفهم لم كل هذا الربط القوي بين ممارسات قوم شعيب «عليه السلام» وبين صفة الفساد. وإذا ما وسّعنا دائرة الحديث عن الفساد التجاري ليشمل الفساد المالي بصورته الأوسع بما يشمل السياسات المالية للحكومات ومؤسسات المجتمع المدني والرشاوى ووضع اليد على الممتلكات العامة أو الخاصة بالقوة أو بالحيلة وغير ذلك، لأدركنا حجم الخطر الذي يهدد المجتمعات عندما يستشري فيها الفساد المالي بعنوانه الأوسع.

وقد كتب عصام البشير بحثاً بعنوان: (الفساد المالي وأثره على الفرد والمجتمع): (إن ثلث الفساد المالي مركزه الوطن العربي، ونصفه في العالم الإسلامي. هذا ما قاله تقرير منظمة الشفافية العالمية الصادر عام ٢٠٠٥م، فقد جاء في التقرير أن حجم الفساد المالي في العالم يقدر بألف

بليون دولار، منها ثلاثمائة بليون في الوطن العربي وحده، أي أن حجم الفساد المالي في الوطن العربي يساوي ثلث الفساد العالمي، فإذا أضفنا حجم الفساد في الدول القائمة في العالم الإسلامي الأخرى فإن حجم الفساد في العالم الإسلامي يتجاوز نصف الفساد العالمي، والفساد المقصود في هذا التقرير ينحصر في سوء استعمال الوظيفة في القطاع العام من أجل تحقيق مكاسب شخصية. فكيف لو تحدث التقرير عن أنواع الفساد الأخرى الأخلاقية والبيئية والإدارية والتعسف في استغلال السلطة ومواقع المسؤولية والاجتماعية وحتى الذائقة الفنية والأدبية؟).

ثم ضرب أمثلة من واقع الفساد المالي وهي: (السرقه - قبول الرشوة - المحسوبية والمحاباة) وتحدث عنها بشئ من التفصيل، ثم ذكر آثار ذلك الفساد بصورة موسعة جادت ضمن العناوين التالية: (إهدار حقوق ذوي الكفاءات معتبراً إياه نوعاً من أنواع أكل أموال الناس بالباطل - الإحساس بالإحباط والظلم والقهر - ضعف الانتماء - الانصراف عن العمل المنتج - إهدار الفرصة البديلة في توفير فرص عمل حقيقية - تهيئة الفرد لارتكاب الجرائم - انتشار أنواع من

الممارسات تقع تحت ظاهرة الاقتصاد الأسود مثل الدعارة، وتجارة المخدرات، والرشوة، وتهريب السلع غير المسموح بتداولها، وتجارة السلاح غير المشروعة، وتجارة الأطفال، وتجارة الأعضاء البشرية - تدمير البيئة وذلك من خلال فساد الزراعات والمياه والهواء عن طريق تجارة أو صناعة مستلزمات غير صالحة للاستهلاك الآدمي أو استخدام معدلات غير مسموح بها من المواد الكيماوية - انتشار ظاهرة غسيل الأموال في محاولة لإكساب الدخول القدرة من ممارسة الفساد صفة الشرعية - الاستهلاك ببذخ بمعنى شيوع مظاهر استهلاكية لا تعبر عن دخول حقيقية؛ فالذي يحصل على دخله من الفساد يسعى لإنفاقه ببذخ وبسهولة كذلك - وقوع الاقتصاد الوطني في براثن العصابات الدولية وذلك لأن من يمارسون الفساد في بلادهم لا يأبهون بقضية الوطنية والحرص على المصلحة العليا للبلاد بل يبيعونها لعصابات دولية تسعى للتحكم في مقدراته - إهدار دولة القانون - حيث إن أنشطة الفساد تحكمها قوانين غير مكتوبة يتعارف عليها ممارسو الفساد، وبالتالي تتعلق البيئة بالفساد المالي، لأن الذين يفسدونهم يسعون للمال السريع

- إرباك السياسات الاقتصادية لصعوبة الوقوف على بيانات حقيقية تعتمد عليها السياسة الاقتصادية في اعتماد آلياتها - انتشار ظواهر اقتصادية سلبية مثل حرق السلع أو المضاربات في الأراضي والبورصات أو العملات للسعي من أجل غسيل أموال الفساد - عدم دقة بيانات المؤشرات الرئيسية للاقتصاد القومي لأن الأموال الناتجة من ممارسة الفساد لا ترتبط بالمقومات الاقتصادية الوطنية، كإنتاج المحلي الإجمالي، أو المشاركة في مشروعات خطة التنمية للدولة؛ لأنه عادة ما تضر أموال الفساد بموارد الدولة لأنها تحقق في الخفاء ولا يتم محاسبتها ضربياً - التدهور الاقتصادي - الفساد الاجتماعي - إهدار قيم المجتمع نحو الثروة والعمل الصالح) «www.fikercenter.com».

● أسس المعالجة:

ونعود إلى الآيات التي عرضت قصة النبي شعيب «عليه السلام»، فهي تتحدث أيضاً عن أسس معالجة هذا النبي للفساد المستشري في مجتمعه.. ويمكن تلخيصها في التالي:

١. الانطلاق أولاً من قاعدة الإيمان بالله «عز وجل» وحده لا شريك له، ليكون منطلق الإصلاح واحداً، ولتعتمد أسس

المعالجة على منهجية نابغة من مصدر واحد، وليكون الهدف من الإصلاح واحداً أيضاً.

٢. التأكيد على آثار ذلك الفساد على كافة الأصعدة التي تهدد مجتمعه بالانهيار، قال: ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٨٥)، وكلمة ﴿تَعْتَوُوا﴾ تعني: لا تفسدوا إفساداً شديداً من خلال القتل وغيره.

٣. التشجيع على الكسب الحلال وبركته وكفايته: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وهذا يُغني عن الطرق المحرمة في الكسب والتي تنزع منها البركة، وتعود بالوبال على الفرد والمجتمع.

٤. يبدو أن مسألة الحرية الفردية بالنسبة إلى قومه كانت قضية حساسة، فقد قالوا له: ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾^(٨٦)، ولذا تعامل معها النبي شعيب بحذر، وواجه مقاومة عنيفة من هذا المنطلق، مما دفعه للتأكيد على أن دوره هو مجرد الإصلاح ما استطاع، لا القهر والإجبار، قال: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾^(٨٦).

٥. التأكيد على إخلاصه في هذه الدعوة، وحفظ نفسه عن

المغريات التي قد تكون مباحة ولكنها تزل من خلالها أقدام الرجال، لكي تكون لديه المصادقية في ما يُقدّم عليه، قال «عز وجل» على لسان النبي شعيب «عليه السلام»: ﴿قَالَ يَقُومُ أَرَعَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكَمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.



الفساد الفكري



قال «تعالى»: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ «يونس».

تؤكد الآيات هنا على أن إنكار دين الله بإنكار القرآن

ورسالة النبي محمد «صلى الله عليه وآله» يَعدّ من صور الفساد، فالفساد قد يعتري المفاهيم والأفكار، لتتحول إلى شبهات أو عقائد باطلة في الأذهان، كما قد تتحول إلى ممارسات تلحق الضرر البالغ بالبشرية وما يحيط بها.

فالشوفينية «التطرف في حب الوطن إلى درجة استعداد الآخرين ومحاربتهم» وأمثالها من الصهيونية والنازية والفاشية والبعثية والشيوعية والرأسمالية والتكفيرية.. كلها متبنّيات لا تقف عند حدّ الفساد المفاهيمي، بل تتجاوز ذلك لتتحول إلى مجازر وجرائم وحروب وانتهاك حرمان وبمبررات! ولو أردنا أن نحصي الضحايا البشرية لهذه التبعات خلال القرن الماضي وبدايات هذا القرن لكان الرقم مهولاً! هذا فضلاً عن الدمار البيئي والتبعات الاقتصادية والاجتماعية والنفسية وغيرها.

• فساد فرعون:

ومن هنا عندما تحدث القرآن عن كون فرعون من المفسدين: ﴿وَجَوْرَنَا بِنْتِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ عَآمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي عَآمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٥٠﴾ عَالَمَنَ

وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١﴾ «يونس»، فإن المسألة لا تقف عند حد الفساد العقيدي المتمثل بالشرك، ورفض نبوة موسى «عليه السلام»، بل وادعاء الإلهوية لنفسه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمُنُنَّ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ «القصص»، بل يتجاوزة ليشمل انعكاسات ذلك الاستكبار الفكري عملياً: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْجِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤١﴾ «القصص»، ثم كردة فعل ضد دعوة النبي موسى «عليه السلام»: ﴿فَلَمَّا آتَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ «يونس».

والمفارقة أن فرعون في مواجهة هذه الدعوة كان يوجه النقد لموسى «عليه السلام» ويتهمة بالإفساد: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ «غافر».

وبنفس المنطق تحدّث الذين كانوا من حوله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ

وَيَذَرُكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ «الأعراف»، وهذا ديدن الظالمين والمستكبرين وأصحاب المصالح في دغدغة شعور الناس وتخويفهم من تبعات الإيمان بدعوة المصلحين: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ «يونس»، ومحاولة قلب الطاولة على المصلحين: ﴿... قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ «غافر».

وهذا ما نجده في مشهد آخر بعيداً عن الصراع بين موسى وفرعون، ففي قصة المرسلين الثلاثة إلى إحدى القرى التي تحدثت عنها سورة يس: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ «يس»، بمعنى أننا نرى فيكم شؤماً على مجتمعنا من خلال دعوتكم هذه التي تدعون أنها دعوة إصلاح وهي في الواقع دعوة إفساد، لأنكم ستفرقون بين المرء وزوجه، وبين الأب وابنه، ولأنكم ستقسمون المجتمع وسينعكس هذا على الوضع الآمن والمستقر الذي نعيشه على المستوى الاقتصادي والسياسي والاجتماعي.

• الفساد في الدائرة الإيمانية:

وعلى كل حال فإنّ مثل هذا الفساد الفكري -المنعكس سلوكياً على أفعال أصحابه- لا يخصّ الكافرين، بل يشمل المؤمنين، فقد وقع قوم النبي موسى «عليه السلام» في ذلك من قبل واعتبره القرآن إفساداً: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَاتِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ «الأعراف». وتحقق ما حذّر منه النبي موسى حين صنعوا العجل وعبدوه.

ووقع المسلمون -من بعد- في وضع مشابه لذلك، وكما أخبر النبي «صلى الله عليه وآله» على ما هو المروي عنه أنه قال: (لَتَتَّبِعَنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شَبْرًا بِشِيرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ. قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فَمَنْ؟) «صحيح البخاري، ح ٧٣٢٠».

فقد انطلق الأمويون بكل قوة في طريق إفساد المجتمع الإسلامي فكرياً، إذ حاربوا الإسلام من قبل على عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله» وأرادوا القضاء عليه وعلى دولته الفتية فما استطاعوا، بل واضطروا إلى قبول الدخول في

الإسلام مرغمين ضمن قوافل الطلقاء، ثم بدءوا بمحاربة النبي من داخل المجتمع الإسلامي حال حياته، ففي مسند الإمام أحمد: (كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ » أُرِيدُ حِفْظَهُ فَتَهْتَنِّي قُرَيْشٌ) وقريش هنا تعبير عن هذا الاتجاه الأموي الذي كان يترأس الحرب ضد النبي ص قبل فتح مكة ثم أصبح يحاربه من الداخل (فقالوا إِنَّكَ تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ » وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ » بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا. فَأَمْسَكَتُ عَنِ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ » فَقَالَ: أَكْتُبْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنِّي إِلَّا حَقٌّ) «مسند أحمد، ج ١٥، ص ١٠».

أما بعد وفاته «صلى الله عليه وآله» فقد عملوا على إفساد المسلمين فكراً، وذلك بوسائل عديدة من بينها:

١. وضع الحديث: لتغيير العقائد ابتداء بالتوحيد والمعاد والنبوة، ومروراً بالمفاهيم والقيم الإسلامية واختلاق المناقب والفضائل للخط الذي تتبناه السلطة الأموية، واختلاق المثالب للخط الذي تعاديه السلطة، وهكذا امتدّ الوضع إلى كل القضايا والشؤون والسياسة والفكر

والأشخاص، وأصبحت ظاهرة الوضع ظاهرة خطيرة تهدد هوية الإسلام تهديداً حقيقياً. حتى بات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خروجاً باطلاً، وعلى الجميع أن يرضى بكل الظلم الذي يمارسه الحاكمون مهما بلغ، وأقصى ما يقومون به هو أن يوجهوا إليه شيئاً من النصيحة.. لا أكثر.. هذا نموذج بسيط من توظيف الوضع والتحريف في الحديث لصالح الأمويين.

٢. اختلاق العقائد الباطلة: التي تشوّه صورة الإسلام، وتدخل فيه الإسرائيليات والأمور الشركية وتبرر أحياناً للسلطة ممارساتها غير الشرعية. ومثال ذلك ما ذكره الدكتور حسن إبراهيم حسن في (تاريخ الإسلام) حول عقيدة الإرجاء الخطيرة التي تفصل بين الإيمان والعمل معتبرة أنه لا يضر مع الإيمان عمل مهما بلغ. قال: (طائفة المرجئة التي ظهرت في دمشق حاضرة الأمويين بتأثير بعض العوامل المسيحية، خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري. وقد سميت هذه الطائفة المرجئة من الإرجاء وهو التأخير، لأنهم يرجئون الحكم على العصاة من المسلمين إلى يوم البعث. كما يتحرجون عن إدانة أي مسلم مهما كانت الذنوب

التي اقترفها! وهؤلاء هم في الحقيقة كتلة المسلمين التي رضيت حكم بني أمية.. ويقول فون كريم: ومما يؤسف له كثيراً أنه ليس لدينا غير القليل من الأخبار الصحيحة عن هذه الطائفة، فقد استمروا طوال ذلك العصر وذاقوا حلوه ومره، وقد ضاعت جميع المصادر التاريخية العربية عن الأمويين، حتى أن أقدم المصادر التاريخية التي وصلت إلينا إنما ترجع إلى عهد العباسيين، ومن ثمَّ كان لزوماً علينا أن نستقي معلوماتنا عن المرجئة من تلك الشذرات المبعثرة في مؤلفات كتاب العرب في ذلك العصر) «تاريخ الإسلام، ج، ص ٤١٦».

٣. الميل إلى الإلحاد: كما نجده في سيرة الخليفتين الوليد ابن يزيد ومروان بن محمد، ففي كتاب (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) لعبدالرحمن ابن الجوزي: (وكان الوليد ابن يزيد مشهوراً بالإلحاد مبارزاً بالعناد مطرماً للدين) «المنتظم، ج ٧، ص ٢٤٨». كما أحاطت بالخلفاء الأمويين شخصيات عُرِفَت بالميل الإلحادي منهم مطيع بن إلياس الشاعر الخليع، الذي تعرَّض أبو الفرج الأصفهاني لقصصه في موسوعته (الأغانى).

٤. النيل من رسول الله «صلى الله عليه وآله» والانتقاص من مكانته ومثال على ذلك ما جاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: (خطب الحجاج بالكوفة فذكر الذين يزورون قبر رسول الله ص بالمدينة، فقال: تباً لهم! إنما يطوفون بأعواد ورمّة بالية! هلاً طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك! ألا يعلمون أنّ خليفة المرء خير من رسوله!) «شرح نهج البلاغة، ج ١٥، ص ٢٤٢». ومن الواضح أن الانتقاص من مكانة النبي تهدف للتقليل من شأن ما جاء به وسنته وتعاليمه وهديده.

٥. محاربة مدرسة أهل البيت: فهم حملة علم رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وقد أوصى النبي بهم مراراً وتكراراً، ولاسيما علي «عليه السلام» باب مدينة علم رسول الله، وقد تقنّن بنو أمية في قتلهم ومحاربتهم والتضييق عليهم وتشويه صورتهم بشتّى الطرق، حتى بلغ الأمر درجة الخوف من ذكر اسم علي، أو تسمية الأبناء باسمه!

ففي (تهذيب التهذيب) لابن حجر العسقلاني: (قال الليث: قال علي بن رباح: لا أجعل في حلّ من سماني علماً فإن اسمي علي. قال أبو عبد الرحمن المقرئ: كانت بنو أمية إذا سمعوا بمولود اسمه علي قتلوه، فبلغ ذلك رباحاً) الأب

(فقال: هو علي. وكان) الأب (يفضّب من علي ويحرّج علي من سمّاه به) خوفاً على ولده من القتل «تهذيب التهذيب، ج٧، ص ٢٨٧».

٦. محاولة القضاء على مراكز العلم: كالمدينة ومكة والكوفة، والتضييق عليها مالياً، والحد من شأنها، قال ابن أبي الحديد: (وطيبة اسم المدينة، كان اسمها يثرب، فسمّاها رسول الله «صلى الله عليه وآله» طيبة. ومما أكفر الناس به يزيد بن معاوية أنه سمّاها خبيثة! مراغمة لرسول الله «صلى الله عليه وآله») «شرح نهج البلاغة، ج٩، ص ٢٣٨».

وفي (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة الدينوري: (قال أبو معشر: قال لي رجل: بينا أنا في بعض أسواق الشام، إذا برجل ضخم، فقال لي: ممن أنت؟ قلت: رجل من أهل المدينة، قال: من أهل الخبيثة؟ قال: فقلت له: سبحان الله، رسول الله «صلى الله عليه وآله» سمّاها طيبة وسمّيتها خبيثة؟!) «الإمامة والسياسة، ج١، ص ٢٣٨»، ثم يحكي الرجل الضخم قصة مشاركته في غزو المدينة وانتهاك حرمتها بأمر يزيد، وقتل الصحابة والتابعين والأهالي العزل في وقعة الحرة.

ثم جاء الأمر بانتهاك حرمة مكة المكرمة أثناء ثورة

ابن الزبير وهدم الكعبة وقتل المتحصّنين بها كحلقة أخرى في سلسلة ممارسات بني أمية الإجرامية بحقّ الحرمين الشريفين.. وتكرّر المشهد أيام الحجاج أيضاً، حيث عاد وهدم الكعبة بعد أن رمّمها ابن الزبير، ليبينها كما يريد هو وصاداته!

وقد أشار الإمام الحسين «عليه السلام» في بعض كلماته في نهضته إلى جانبٍ من هذا الإفساد الفكري الذي مارسه الأمويون، وبيان آثاره الفكرية والعملية على القوم الذين نكثوا عهودهم، أو انقلبوا عليه فقدموا لقتله، بعد أن صار المعروف عندهم منكراً والمنكر معروفاً، وبعد أن ضاعت معالم الدين في تصوراتهم، وتخلّوا عن مسؤولياتهم. وفيما قاله بحسب رواية السيد ابن طاوس: (تباً لكم أيّها الجماعة وترحاً، استصرختمونا واليهين فأصرخناكم موجفين، سلّتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتهم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم ألباً لأعدائكم على أوليائكم، بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصح لكم فيهم فهلا لكم الويلات تركتمونا والسيف مشيم) في غمده (والجأش طامن والرأي لما يستحصف) لم يحسم بعد (ولكن أسرعتم

إليها كطيرة الدّبا) صغار الجراد (وتداعيتهم إليها كتهافت الفراش. فسحقاً يا عبيد الأمة، وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرفي الكلم، وعصبة الآثام، ونفثة الشيطان، ومطفئي السنن، أهؤلاء تعضدون وعناً تتخاذلون؟ أجل والله الغدر فيكم قديم، وشجّت إليه أصولكم) التفت وتشابكت (وتأزرت عليه فروعكم، فكنتم أخبث ثمّ شجاً للناظر، وأكلة للغاصب. ألا وإنّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة، يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنين وحجور طابت وظهرت وأنوف حمية ونفوس أبيّة من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام) «اللهوف، ص ٥٨-٥٩».

وهو تصوير رائع لمدى تأثير ذلك الإفساد الفكري على القوم حتى عاشوا تلك الرّدّة والمسخ الحضاري، فوقفوا ذلك الموقف، وسيدفعهم لارتكاب جرائمهم الكبرى التي شملت أكثر صور الخزي والعار لفعل يمكن أن يرتكبه أحد بالتمثيل في الجثث الطاهرة، وقطع الرؤوس وحملها على الأسنة، وقتل الأطفال والنساء، وأسر آل بيت النبوة وغير ذلك من فظائع يندى لها الجبين، ولم يكن يُقدّم عليها الجاهليون.

وقد روي عن علي «عليه السلام» قوله قبل بدء معركة صفين: (لَا تَهَيَّجُوا النِّسَاءَ بِأَذَى، وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ، وَسَبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ، فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ، إِنْ كُنَّا لَنُؤَمِّرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفَهْرِ) الحجر الذي يكون بحجم الكف (أَوْ الْهَرَاوَةَ فَيُعِيرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ) «نهج البلاغة، ك ١٤».

وفي ليلة عاشوراء تحدث الإمام الحسين «عليه السلام» بما يتضمن نفس الفكرة التي تؤكد استحكام ذلك الفساد الفكري عند الناس، ففي (مجمع الزوائد) للهيتمي: (لما نزل عمر بن سعد بالحسين وأيقن أنهم قاتلوه قام في أصحابه خطيباً فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال: قد نزل ما ترون من الأمر، وإن الدنيا تغيرت وتكثرت وأدبر معروفها وانشمر حتى لم يبق منها إلا صباغة الإناء إلا خسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه؟ ليرغب المؤمن في لقاء الله فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً) «مجمع الزوائد، ج ٩، ص ١٩٢».

فقد أوضح «عليه السلام» في هذه الكلمة أن الدنيا تغيّرت عما كان يُفترض أن تكون عليه بعد كل تلك الجهود التي بذلها النبي «صلى الله عليه وآله» والتضحيات التي قدمها وصحبه من أجل تمكين الإسلام فكراً وعملاً، وبالتالي فقد أنكرت وأدبر معروفها، بحيث صار المنكر معروفاً والمعروف منكراً، ولا بد من إصلاح ما فسد وتقويم ما اعوج، وإن أدى ذلك إلى الشهادة، وهو ما عبر عنه بقوله «عليه السلام»: ليرغب المؤمن في لقاء الله محققاً.

وما هو إلا نتاج ذلك الإفساد الفكري الذي مارسه الأمويون حتى تحقق ما قد حذر منه النبي من قبل على ما هو المروي عنه، ففي (المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار) لعبد الرحيم بن الحسين العراقي: (عن أبي أمامة عن النبي «صلى الله عليه وآله»: كَيْفَ بَكُمْ إِذَا طَغَى نَسَاؤُكُمْ وَفَسَقَ شَبَابُكُمْ وَتَرَكْتُمْ جِهَادَكُمْ؟ قَالُوا: وَإِنَّ ذَلِكَ لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ. قَالُوا: وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَمْ تَأْمُرُوا بِمَعْرُوفٍ وَلَمْ تَنْهَوْا عَنِ مُنْكَرٍ؟ قَالُوا: وَكَأَيُّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ

وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ. قَالُوا: وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ؟ قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا؟ قَالُوا: وَكَأَنَّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ. قَالُوا: وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ، يَقُولُ اللَّهُ «تَعَالَى»: بِي حَلَفْتُ لِأَتِيَحَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً يَصِيرُ الْحَلِيمُ فِيهَا حَيْرَانَ) «تخريج الإحياء، ج ٢، ص ٣٨٠».

أحياناً كثيرة تكون مشكلة الواقع الذي نعيشه أن الأمور تختلط فيه علينا من خلال الإفساد أو الفساد المفاهيمي الذي يؤدي إلى انقلاب المقاييس، فيصبح المنكر معروفاً والمعروف منكراً، ويصبح دعاة الإصلاح في عزلة، وليتغنى به حتى أولئك الذين زرعوا الفساد في كل مكان! وعلى سُنَّةِ فرعون! مثل هذا التشويه يحتاج إلى عملية جراحية لإعادة توظيف الإمكانيات في الخطط التي من شأنها إعادة إنتاج الأمة، ليكون لها رصيدها بين الأمم بعدما شوّه المفسدون صورتها وهدّدوا مستقبلها.





نقض العهود والمواثيق

العقود والعهود والمواثيق ظاهرة اجتماعية ملازمة للإنسان، لا ضطراره إليها في تدبير معاشه وأمنه وعلاقاته. وقد أعطى القرآن الكريم للعهود والعقود أهمية كبرى، وأكد على ضرورة إنفاذها، والإيفاء بها وتحمل آثارها وتبعاتها، وقد قال «عز وجل»: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّاتِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا

قَلِيلًا أَوْلِيَّكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ
إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ «آل عمران».

هذه الصورة القبيحة ببعض أهل الكتاب، واليهود منهم خاصة، والمصير البائس والعذاب الأليم الذي توعدهم به الله «عز وجل»، إنما ارتبطت بسلوكهم المذموم في جانب الوفاء والأمانة، والقائم على التمييز العنصري والديني في قضية لم يُميز فيها التشريع النازل عليهم بين قوم وقوم، أو بين أتباع دين ودين، فالأمانة والوفاء بالعهد والعقد لا علاقة لها بذلك. ولذا في الخبر عن الحسين الشيباني عن أبي عبد الله الصادق «عليه السلام» قال: (قُلْتُ لَهُ: رَجُلٌ مِنْ مَوَالِيكَ يَسْتَحِلُّ مَالَ بَنِي أُمَيَّةٍ وَدِمَاءَهُمْ، وَإِنَّهُ وَقَعَ لَهُمْ عِنْدَهُ وَدِيعَةٌ، فَقَالَ: أَدُّوا الْأَمَانَةَ إِلَى أَهْلِهَا، وَإِنْ كَانُوا مَجُوسًا).

وعن الحسين بن مصعب الهمداني قال: (سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ «عليه السلام» يَقُولُ: ثَلَاثٌ لَا عُذْرَ لِأَحَدٍ فِيهَا: آدَاءُ الْأَمَانَةِ إِلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ بَرَّيْنِ كَانَا أَوْ فَاجِرَيْنِ).

وعن عمار بن مروان قال: (قال أبو عبد الله «عليه السلام» في وصيته له: اَعْلَمْ أَنَّ ضَارِبَ عَلِيٍّ بِالسَّيْفِ وَقَاتَلَهُ

لَوْ اَتَمَمْتَنِي وَاسْتَصَحَنِي وَاسْتَشَارَنِي ثُمَّ قَبِلْتُ ذَلِكَ مِنْهُ
لَأَدَّيْتُ إِلَيْهِ الْأَمَانَةَ).

وعن الإمام علي بن الحسين زين العابدين «عليه السلام»
أنه قال لشيعته: (عليكم بأداء الأمانة، فوالذي بعث محمداً
بالحق نبياً، لو أن قاتل أبي الحسين بن علي بن أبي طالب
اَتَمَمَنِي عَلَى السَّيْفِ الَّذِي قُتِلَ بِهِ، لَأَدَّيْتُهُ إِلَيْهِ) «بحار الأنوار،
ج ٧٢، باب أداء الأمانة».

• النبي الأمين:

وقد كان نبينا الأكرم «صلى الله عليه وآله» الأمين مع
قريش، وهم مشركون، وأمر علياً «عليه السلام» أن ينادي
جهاراً في مكة بعد هجرته «صلى الله عليه وآله» لإعادة
الأمانات إلى أصحابها.. وهم لا شك مشركون.

وفي كتاب (الأمالى) للشيخ الطوسي حول هجرة النبي
«صلى الله عليه وآله» إلى المدينة حديث يتناول تفاصيل ما
جرى بعد أن هجم المشركون المتربصون بالدار على علي
«عليه السلام» وهم يظنون أنه النبي «صلى الله عليه وآله»،
قال: (وأمهل علي «صلوات الله عليه» حتى إذا أعتم من
الليلة القابلة انطلق هو وهند بن أبي هالة حتى دخلا على

رسول الله «صلى الله عليه وآله» في الغار، فأمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» هنداً أن يبتاع له ولصاحبه بغيرين، فقال أبوبكر: قد كنتُ أعددتُ لي ولك يا نبي الله راحلتين نرتحلهما إلى يثرب. فقال: إني لا آخذهما ولا أحدهما إلا بالثمن. قال: فهي لك بذلك، فأمر «صلى الله عليه وآله» علياً «عليه السلام» فأقبضه الثمن، ثم أوصاه بحفظ ذمته وأداء أمانته. وكانت قريش تدعو محمداً «صلى الله عليه وآله» في الجاهلية الأمين، وكانت تستودعه وتستحفظه أموالها وأمتعتها، وكذلك من يقدم مكة من العرب في الموسم، وجاءته النبوة والرسالة والأمر كذلك، فأمر علياً «عليه السلام» أن يقيم صارخاً يهتف بالأبطح غدوةً وعشيّاً: ألا من كان له قبل محمد أمانة أو ودیعة، فليأت فلتؤد إليه أمانته. وقال النبي «صلى الله عليه وآله»: إنهم لن يصلوا من الآن إليك يا علي بأمر تكرهه حتى تقدم عليّ، فأد أمانتي على أعين الناس ظاهراً) «الأمالی، ص ١٧٦».

• تبعات صلح الحديبية:

وفي صلح الحديبية شُرط على النبي «صلى الله عليه وآله» أنه: (لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا)

«عمدة القاري، ج ١٣، ص ٢٧٧». والتزم النبي «صلى الله عليه وآله» بذلك الشرط ضمن الميثاق على الرغم من مضمونه المؤلم، ويذكر البخاري في صحيحه بعض ما جرى بعد ذلك في هذا الإطار: (... فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ رَجُلٌ مِّنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ) قيل اسمه عتبة بن أسيد الثقفي (فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: الْعَهْدُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِمَّنْ تَمَرٌ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيْدًا فَاسْتَلِّهِ الْآخِرَ فَقَالَ: أَجَلٌ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجَيْدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ فَأَمَكَّنَهُ مِنْهُ، فَضَرْبُهُ حَتَّى بَرَدَ وَفَرَّ الْآخَرُ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ «صلى الله عليه وسلم» حِينَ رَأَاهُ: لَقَدْ رَأَى هَذَا دُعْرًا، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ «صلى الله عليه وسلم»، قَالَ: قُتِلَ وَاللَّهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهِ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنْجَانِي اللَّهُ مِنْهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ «صلى الله عليه وسلم»: وَيْلُ أُمِّهِ (كلمة تعجب يصفه بالإقدام (مِسْعَرُ حَرْبٍ) أي موقد حرب (لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ

أَنَّهُ سَيَرِدُهُ إِلَيْهِمْ ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سَيْفَ الْبَحْرِ ، قَالَ : وَيَنْفَلْتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلُ بْنُ سُهَيْلٍ فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ ، فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عَصَابَةٌ ، فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بَعِيرَ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا ، فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ «صلى الله عليه وسلم» تَنَاشِدُهُ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ «صلى الله عليه وسلم» إِلَيْهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ «تَعَالَى» : ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (٢٦) «صحيح البخاري، ح ٢٥٤٢».

ومن المهم أن نلاحظ أن الآية التي ذمّت أهل الكتاب على سلوكهم وافترائهم قد اعتبرت أن الميثاق الذي يعقدونه مع الآخرين ولو من ملأ أخرى هو ميثاق وعهد مع الله في المقام الأول، كما أكّدت على أنّ الوفاء بالعهود والالتزام بالتّقوى هما اللذان يُمكن لهما أن يحققا دوام المصلحة الإنسانية واستمراريتها، ومن خلالهما يحصل الإنسان على محبة الله. وهكذا فإنّ من الضروري إذا دخل المسلمون في معاهدة

مع الآخرين، أن يشعر الآخرون بالأمن في علاقاتهم بالمسلمين، ويضمنوا لأنفسهم الثبات في المواقع التي تشبثها هذه المعاهدة.

● أقسام العهود:

في القرآن حديث عن العهود والعقود على أقسام:

١. بين الإنسان وربّه، كما في قوله «تعالى»: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ١١﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿١٢﴾﴾ «الرعد».

٢. بين الأفراد لشئون شخصية، كما في قوله «سبحانه وتعالى»: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ٣١﴾ «الإسراء».

٣. بين أمم ومجتمعات، كما جاء في قوله «تعالى»: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ٢﴾ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ

كَفَرُوا بِعَذَابِ آلِيمٍ ﴿٣٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ «التوبة».

٤. بين أفراد الأمة كقانون وعرف وعقد اجتماعي يلتزم الجميع به، كما في قوله «سبحانه وتعالى»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ «الأنفال».

فهناك عهد داخلي نشأ بين المؤمنين بعضهم البعض تحت عنوان الولاية، وتترتب عليها استحقاقات إلا إذا كان بين المؤمنين وبين قوم ما ميثاق متعارض، فحينذاك لا يعمل بذلك الاستحقاق التزاماً بالميثاق مع المشركين!

وقد ضرب القرآن الكريم نموذجاً لنقض الميثاق بين أتباع الملة الواحدة، وذلك ضمن ذمّه لممارسات بني إسرائيل، فقال «تعالى»: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ

دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دَيْرِكُمْ ثُمَّ أَقَرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٦﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّنْ دَيْرِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُواكُمُ أَسْرَىٰ تَقْدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٨﴾ «البقرة».

وَقَتْلَ النفس هنا لا بمعنى الانتحار، بل بمعنى قتل بعضهم البعض، فالقرآن يعتبر أبناء الأمة الواحدة بمثابة النفس لبعضهم البعض، تماماً كما في قوله «تعالى»: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَقُومُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥١﴾﴾ «البقرة».

قال العلامة الطباطبائي في تفسيره: (إنما يعني به قتل البعض وهم الذين عبدوا العجل) «الميزان، ج ١، ص ١٨٩».

وفي القرآن الكريم حديث عن ميثاق مشابه يخص أتباع الشريعة المحمدية، فقد قال «تعالى»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣١﴾ «النساء». قال العلامة الطباطبائي: (ظاهر الجملة أنها نهي عن قتل الإنسان نفسه، لكن مقارنتها قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ﴾، حيث إن ظاهره أخذ مجموع المؤمنين كنفس واحدة لها مال يجب أن تأكلها من غير طريق الباطل ربما أشعرت أو دلّت على أنّ المراد بالأنفس جميع نفوس المجتمع الديني المأخوذة كنفس واحدة نفس كل بعض هي نفس الآخر، فيكون في مثل هذا المجتمع نفس الإنسان نفسه و نفس غيره أيضاً نفسه، فلو قتل نفسه أو غيره فقد قتل نفسه، و بهذه العناية تكون الجملة أعني قوله: ﴿لَوْلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ مطلقة تشمل الانتحار -الذي هو قتل الإنسان نفسه- و قتل الإنسان غيره من المؤمنين) «الميزان، ج ٤، ص ٣٢٠».

ولك أن تنظر الى واقع الأمة الإسلامية اليوم فيما يمارسه الحكّام ضد شعوبهم، بطرد وتهجير مَنْ يخالفهم من ديارهم، أو دفعهم للخروج والهجرة إلى ديار غير المسلمين

كلاجئين لسبب أو لآخر، وتبعات ذلك النفسية والدينية والثقافية وخسارة المجتمع لعقول أبنائها. وبالإضافة إلى الطرد نجد المطاردة والقتل وأحكام الإعدام للمعارضين وغير ذلك من ممارسات تدخل ضمن تلك الصورة المقدمة في القرآن.

وهكذا تمارس ذات الدور الجماعات التكفيرية والإقصائية من غير الأحزاب ذات العنوان الإسلامي، بل وأبشع منه فيما يشهده عالمنا الإسلامي المملئ بالمآسي والجرائم البشعة، وفي ظل إمداد غربي لبعض الأطراف أو مساندتها بنحو من المساندة، مادام الأمر يصب في صالحها وصالح الكيان الصهيوني، مهما بلغت بشاعة تلك الجرائم!

● علاقة نقض العهود بالفساد:

وقد ارتبط الحديث حول نقض المواثيق والعهود والعقود بالفساد، ولعلها إشارة إلى حالة تضمنية، بمعنى أن نقضها فساد في حد ذاته، أو التزامية بينهما، بمعنى أن نقضها يؤدي إلى الفساد في المجتمع. قال «تعالى»: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا

أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ «البقرة».

وقال «تعالى»: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ ﴿٢٥﴾ «الرعد».

ومعنى الفساد الذي أشرنا إليه في أكثر من موقع هو حالة الخراب والتفكك وضعف الارتباط التي تسود المجتمع، والتجاوز على حقوق الآخرين، والصراع الداخلي والخارجي، ومن الواضح أن نقض العهود والمواثيق والعقود تمثل أسباباً واضحة لذلك، سواء كان هذا النقض مع الله أو مع الأمة أو بين الأمم أو بين الأفراد.

ومن هنا، أكد أمير المؤمنين علي «عليه السلام» على امتناعه عن الغدر بالمواثيق والعهود وكلمة الشرف، وإن لجأ إليها الطرف الآخر في الخصومة والصراع معه، وقد عبّر عن ذلك كما جاء في نهج البلاغة بقوله: (وَاللَّهُ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي، وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْ لَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ

أَدَهَى النَّاسَ، وَلَكِنْ كُلُّ غَدْرَةٍ فَجْرَةٌ، وَكُلُّ فَجْرَةٍ كَفْرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَاللَّهُ مَا اسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ، وَلَا اسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ) «نهج البلاغة، خ ٢٠٠».

وعلق ابن أبي الحديد على هذه الكلمة فكان مما قاله:
(الفجرة والكفرة: الكثير الفجور والكفر... ثم أقسم «عليه السلام» أنه لا يُستغفل بالمكيدة، أي لا تجوز) لا تمرّ (المكيدة عليّ، كما تجوز على ذوي الغفلة، وأنه لا يُستغمر بالشديدة، أي لا أهين وألين للخطب الشديد... فأما القول في سياسة معاوية، وأنّ شناة علي «عليه السلام» ومبغضيه زعموا أنها خيرٌ من سياسة أمير المؤمنين، فيكفينا في الكلام على ذلك ما قاله شيخنا أبو عثمان «الجاحظ» ونحن نحكيه بألفاظه. قال أبو عثمان: وربما رأيت بعض من يظن بنفسه العقل والتحصيل والفهم والتمييز، وهو من العامة ويظن أنه من الخاصة، يزعم أن معاوية كان أبعد غوراً، وأصح فكراً، وأجود رويّة، وأبعد غاية، وأدقّ مسلكاً، وليس الأمر كذلك، وسأرمي إليك بجملة تعرف بها موضع غلطه، والمكان الذي دخل عليه الخطأ من قبله. كان علي «عليه السلام» لا يستعمل في حربه إلا ما وافق الكتاب والسنة، وكان

معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنة، كما يستعمل الكتاب والسنة، ويستعمل جميع المكاييد، حلالها وحرامها، ويسير في الحرب بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى، وخاقان إذا لاقى رتبيل) أي حاكم الترك (وعلي «عليه السلام» يقول: لا تبدءوهم بالقتال حتى يبدؤكم، ولا تتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تفتحوا باباً مغلقاً، هذه سيرته في ذي الكلاع، وفي أبي الأعور السلمي، وفي عمرو بن العاص، وحبيب بن مسلمة، وفي جميع الرؤساء، كسيرته في الحاشية والحشو والأتباع والسفلة وأصحاب الحروب، إن قدروا على البيات بيّتوا، وإن قدروا على رضح الجميع بالجنـدل وهم نيام فعلوا، وإن أمكن ذلك في طرفة عين لم يؤخّروه إلى ساعة، وإن كان الحرق أعجل من الغرق لم يقتصروا على الغرق ولم يؤخّروا الحرق إلى وقت الغرق، وإن أمكن الهدم لم يتكلّفوا الحصار، ولم يدعوا أن نصبوا المجانيق، والعرادات) جمع عرادة آلة عسكرية كالمنجنيق ولكنها أصغر حجماً (والنقب، والتسريب، والدبّابات، والكمين، ولم يدعوا دس السموم، ولا التضريب بين الناس بالكذب وطرح الكتب في عساكرهم بالسعايات، وتوهيم الأمور، وإيحاش بعض من

بعض، وقتلهم بكل آله وحيلة، كيف وقع القتل، وكيف دارت بهم الحال! فمن اقتصر -حفظك الله- من التدبير على ما في الكتاب والسنة كان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير، وما لا يتناهى من المكاييد والكذب -حفظك الله- أكثر من الصدق، والحرام أكثر عدداً من الحلال... فعلي «عليه السلام» كان مُلجماً بالورع عن جميع القول إلا ما هو لله «عز وجل» رضا، وممنوع اليدين من كل بطش إلا ما هو لله رضا، ولا يرى الرضا إلا فيما يرضاه الله ويحبه، ولا يرى الرضا إلا فيما دلّ عليه الكتاب والسنة، دون ما يعوّل عليه أصحاب الدهاء والنكراء والمكاييد والآراء، فلما أبصرت العوام كثرة نوادر معاوية في المكاييد، وكثرة غرائبه في الخداع، وما اتفق له وتهياً على يده، ولم يروا ذلك من علي «عليه السلام»، ظنّوا بقصر عقولهم، وقلة علومهم، أن ذلك من رجحانٍ عند معاوية ونقصان عند علي «عليه السلام»، فانظر بعد هذا كله، هل يعد له من الخدع إلا رفع المصاحف؟! ثم انظر هل خُدع بها إلا مَنْ عصى رأي علي «عليه السلام» وخالف أمره؟! «شرح نهج البلاغة، ج ١٠، ص ٢٢٧-٢٣٠».

وهذا بالضبط ما عبّر عنه الإمام علي «عليه السلام» نفسه حيث قال وهو يشتكى من سوء تقييم الناس للقرارات وعدم فهمهم لطبيعة السياسة وإدارة الأمور في المنظور الإسلامي حين تكون السياسة خالية من المبادئ والقيم والأخلاق، والغرض منها هو تحقيق النتائج على الأرض ولو عن طريق ما حرم الله، وما قبح من أفعال، وما ذم من سلوكيات: (إِنَّ الْوَفَاءَ تَوَامُ الصِّدْقِ، وَلَا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ، وَمَا يَغْدِرُ مَنْ عِلْمَ كَيْفَ الْمَرْجِعِ) أي الآخرة والحساب والثواب والعقاب لأن الله لا يرضى بالغدر ويعاقب عليه (وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْغَدْرِ كَيْسًا) فصوروا للناس ولأنفسهم أنها شطارة وفهولة ووسيلة مشروعة وممدوحة لتحقيق غاياتهم إذ أنها فرع من فروع الذكاء والحنكة (وَنَسِبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلَةِ، مَا لَهُمْ! قَاتَلَهُمُ اللَّهُ! قَدْ يَرَى الْحَوْلُ الْقَلْبُ) الذين يتدبرون ويفكرون ويتبصرون في الأمور ويقلبونها (وَجَهَ الْحِيلَةِ) أي يتوصلون إلى الحيلة والخديعة ولكن يمنعهم من ذلك الورع (وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ، فَيَدْعُهَا رَأْيٌ عَيْنٌ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا) أما من لا تقوى عنده ولا ورع ولا خوف من الحساب، فإنه لا يتحرّج من

استعمال المكر والخديعة والغدر ونقض المواثيق للوصول إلى غاياته (وَيَنْتَهزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لَا حَرِيْجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ).

ولا يخفى أن علياً «عليه السلام» كان بنفسه ضحية نقض البيعة والميثاق الذي أخذه من عدد من المسلمين، وفيهم كبار الشخصيات، بعد مقتل الخليفة عثمان وعرض الخلافة عليهم ورفضها بدءاً، ثم قبوله تحت إصرار الناس وتحميله المسؤولية، وأدى ذلك إلى نشوب حرب الجمل التي أحدثت فتنة عظيمة بين المسلمين، واضطر الإمام -بعد محاولات عديدة لإخمادها سلمياً- لإخمادها بالسيف، مع التأكيد على أنه بقي رافضاً أن يبدأ القوم بالقتال، ومنع أصحابه من ذلك، وتحملوا رشقات السهام التي نزلت عليهم كالمطر، وحينها أصبح القتال أمراً واقعاً لا مفر منه، حتى إذا انسحب الزبير من ساحة المعركة، منع علي أنصاره أن يتبعوه أو يقتلوه أو يعتقلوه، وأمرهم أن يتركوه وشأنه، ولكن الأمور لم تسر كما أراد، وتسلسل أحدهم إلى الزبير فقتله خارج ساحة الحرب.

كما أكد الإمام علي «عليه السلام» في عهده لمالك الأشتر على مدى أهمية حفظ المواثيق والعهود حيث كتب له قائلاً: (وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوٍّ لَكَ عَقْدَةً، أَوْ الْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً،

فَحُطَّ عَهْدُكَ بِالْوَفَاءِ، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالْأَمَانَةِ، وَاجْعَلْ نَفْسَكَ
 جُنَّةً دُونَ مَا أُعْطِيتَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ «عز وجل»
 شَيْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعاً، مَعَ تَفْرِيقِ أَهْوَانِهِمْ، وَتَشْتِيتِ
 أَرَائِهِمْ، مَنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ، وَقَدْ لَزِمَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ
 فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ
 أَي وَجَدُوها وَبَيْلَةً، مَهْلَكَةً (فَلَا تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ، وَلَا تَخِيسَنَّ
 بِعَهْدِكَ) لَا تَخُنْ عَهْدَكَ (وَلَا تَخْتَلَنَّ) تَخْدَعُ (عَدُوَّكَ، فَإِنَّهُ
 لَا يَجْتَرِئُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا جَاهِلٌ شَقِيٌّ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عَهْدَهُ
 وَذِمَّتَهُ أَمْنًا أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ، وَحَرِيماً يَسْكُنُونَ
 إِلَى مَنَعَتِهِ، يَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ، فَلَا إِدْغَالَ إِفْسَادٍ (وَلَا
 مُدَاسَّةَ) خِيَانَةٍ (وَلَا خِدَاعَ فِيهِ، وَلَا تَعْقِدَ عَقْداً تَجُوزُ فِيهِ
 الْعُلُّ) والتلاعب في الكلام بل اجعله واضحاً صريحاً متقناً
 (وَلَا تَعُولَنَّ عَلَى لَحْنِ الْقَوْلِ بَعْدَ التَّأْكِيدِ وَالتَّوَثُّقَةِ، وَلَا يَدْعُونَكَ
 ضَيْقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللَّهِ، إِلَى طَلَبِ انْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ
 الْحَقِّ، فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضَيْقٍ تَرَجُّوْا انْفِرَاجَهُ وَفَضَلَ عَاقِبَتِهِ،
 خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ، وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللَّهِ فِيهِ طَلِبَةٌ)
 أي يطالبك الله بحقه في الوفاء الذي غدرت به (لَا تَسْتَقِيلُ
 فِيهَا دُنْيَاكَ وَلَا آخِرَتَكَ) «نهج البلاغة، ك ٥٣».

وهذه التعاليم منسجمة تمام الانسجام مع التعاليم الإلهية في القرآن الكريم، ومع سنّة النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» وإن عاب البعض على الإمام أنه فشل في تجربة الحكم وراح ضحية لحظة غدر في مسجد الكوفة، والسبب إصراره على التعامل مع الأمور من خلال القيم التي آمن بها، والحال أن عالم السياسة عالم لا يعرف الحلال والحرام، والقيم والمبادئ، فكان حريٌّ به بحسب هؤلاء أن يُعمل المكر والغدر لينجح في تجربة الحكم. إن هؤلاء لم يفهموا علياً، ولن يفهموا علياً، لأنهم كما قال ابن أبي الحديد في تنمّة كلامه الذي نقلناه سابقاً: (ولا يقول أحدٌ عنده شيء من الخير: كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» أدهى العرب والعجم وأنكر قريش وأمكر كنانة، لأنّ هذه الكلمة إنما وُضعت في مديح أصحاب الإرب، ومن يتعمّق في الرأي في توكيد أمر الدنيا وزبرجها وتشديد أركانها، فأما أصحاب الآخرة الذين يرون الناس لا يصلحون على تدبير البشر، وإنما يصلحون على تدبير خالق البشر، فإنّ هؤلاء لا يمدّحون بالدهاء والذكاء، ولم يَمنعوا هذا إلا ليعطوا أفضل منه) فالدنيا ليست نهاية المطاف، وفي الآخرة سيوفّون أجرهم.





في أجواء الانتخابات البرلمانية، لا بد من التذكير بالعوامل التي يمكن لها أن تؤدي إلى فساد نواب الأمة ممن يبدو عليهم الصلاح ثم تتبدل صورتهم بعد حين، ومن بينها أن يكون المرشح - أحياناً - فاسداً بالقوة لا بالفعل... أي أنه يمتلك مقوّمات الفساد وتتوافر فيه مكامنها، إلا أن الظروف والأرضية لم تكن مهياة له لكي يُظهر هذا الفساد، وهو غافل عنها، لا يدرك وجودها.

وبتعبير السيد الشهيد محمد باقر الصدر: (نحن نقول بأننا أفضل من هارون الرشيد، أروع من هارون الرشيد،

أَتَقَى مِنْ هَارُونَ الرَّشِيدِ، عَجَبَاهُ نَحْنُ عُرِضْتُ عَلَيْنَا دُنْيَا هَارُونَ الرَّشِيدِ فَرَفَضْنَاهَا حَتَّى نَكُونَ أَوْرَعُ مِنْ هَارُونَ الرَّشِيدِ؟).

أو لربما كان مدركاً لوجودها، عالم بفساد سريرته، ولكنه ممثلٌ بارع استطاع أن يخدع الناس بظاهره، وهو ينتظر الفرصة، ويوظف صلاح ظاهره إلى أن يحقق مراده على أكتاف الآخرين، وحينها تظهر حقيقته.

وبتعبير الإمام زين العابدين «عليه السلام»: (إذا رأيتم الرجل قد حَسُنَ سَمَتُهُ وَهَدْيُهُ، وَتَمَاوَتْ فِي مَنْطِقِهِ، وَتَخَاضَعَ فِي حَرَكَاتِهِ، فَرَوِيداً لَا يَغْرَنُكُمْ... فَهُوَ لَا يَزَالُ يَخْتَلُّ النَّاسَ بظَاهِرِهِ، فَإِنْ تَمَكَّنَ مِنْ حَرَامٍ اقْتَحَمَهُ) «الاحتجاج، ص ١٧٥».

وقد تفرَّ الناس بعض العناوين المتعلقة بهذا الفرد... (الجارود بشر بن خنيس العبدي) كان من رجال الشرف والمكانة في بني عبد القيس بالبصرة.. وفد على النبي «صلى الله عليه وآله» عام الوفود على رأس جماعة من قومه، ودخلوا في الإسلام وتركوا النصرانية التي كانوا عليها.

وقد روي أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أكرم الجارود ومن معه حين وفدوا إليه، وطلب من الأنصار أن يكرمهم

ويعتَنُوا بِهِمْ وَقَالَ: (قُومُوا إِلَى إِخْوَانِكُمْ وَأَشْبِهَ النَّاسَ بِكُمْ) «شرح نهج البلاغة، ج ١٨، ص ٥٦». قال ذلك لأنهم أصحاب نخل كما أن الأوس و الخزرج أصحاب نخل.

وذكر ابن أبي الحديد المعتزلي أنه كان يقال: (أطوع الناس في قومه الجارود بن بشر بن المعلّى) أي كانوا ينقادون إليه بشكل كبير، وذكر أن من شواهد ذلك أنه لما قبض رسول الله «صلى الله عليه وآله» فارتدت العرب، خطب قومه فقال: (أيها الناس، إن كان محمدٌ قد مات، فإن الله حي لا يموت. فاستمسكوا بدينكم. ومن ذهب له في هذه الفتنة دينار أو درهم أو بقرة أو شاة، فعليّ مثلاه) «شرح نهج البلاغة، ج ١٨، ص ٥٦». فما خالفه من عبد القيس أحد. واستشهد الجارود عام ٢١ هـ في إحدى حروب المسلمين.

شخصيّة بهذا الوزن وبهذه الصفات وبهذا التاريخ، مع انقياد الناس له بهذا الشكل جعلت علياً «عليه السلام» يُحسَن الظن في ابنه (المنذر)، فعينّه -أيام خلافته- والياً، أملاً في أن يكون الولد كأبيه، وأن يكون عزيز نفس فلا تدنو نفسه بخيانة الأمانة، لأنه ثري وليس بحاجة للمال.

هكذا هو المفروض، وبالتالي يكون عوناً للإمام «عليه

السلام» في إدارة البلاد، وييسر له انقياد الناس في الظروف الصعبة التي كان يعيشها مع الفتنة المتلاحقة... ولكن المفروض شيء، والواقع شيء آخر... فسرعان ما تكشفت خيانة الرجل مالياً، وتورّمت شخصيته، وعاش زهو الرئاسة. فأرسل الإمام «عليه السلام» إليه رسالة فيها: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ صَلَاحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ، وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ، فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لَا تَدْعُ لِهَوَاكَ انْقِيَاداً، وَلَا تُبْقِي لِأَخْرَجِكَ عِتَاداً، تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ أَخْرَجِكَ، وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ. وَلَئِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقّاً، لَجَمَلُ أَهْلِكَ وَشَسْعُ نَعْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ) وإنما خصّ الإمام شسع النعل بالذكر لأنه وصفه في موضع آخر كالتالي: (إنه لنظارٌ في عِطْفِيهِ، مُخْتَالٌ فِي بُرْدِيهِ، تَفَالٌ فِي شِرَاكِيهِ) رغبةً في المحافظة على لمعان نعله، وإنما يفعله المعجب بشراكه ليذهب عنهما الغبار والوسخ، يتقل فيهما ثم يمسحهما (وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرٌ، أَوْ يُنْفَذَ بِهِ أَمْرٌ، أَوْ يُعْلَى لَهُ قَدْرٌ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ، أَوْ يُؤْمَنَ عَلَى خِيَانَةٍ. فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ) «نهج البلاغة، ك ٧١».

ولربما يكون هذا النائب قد اختُبر في مواقع أخرى، أو مجالات أخرى، على مدى سنوات، فتبيّنت للناس أمانته وصلاحه، لا لأنه صالح في ذاته، بل لأن تلك المواقع لم تكن هي نقطة ضعفه، أو يراها أقل من طموحه!

كما قال الإمام زين العابدين «عليه السلام» في تتمة النص السابق الذي ذكرت بدايته: (ويرى أن لذة الرياسة الباطلة، أفضل من لذة الأموال، والنعم المباحة المحللة، فيترك ذلك أجمع طلباً للرياسة... لا يبالي ما فات من دينه، إذا سلّمت له الرياسة، التي قد شقي من أجلها).

• شواهد من التاريخ:

عندما تقرأ سيرة عبد الملك بن مروان في تاريخ ابن كثير -على سبيل المثال- ستجد أنه يذكره كالتالي: (كان أميراً على أهل المدينة وله ست عشرة سنة، ولاه إياها معاوية، وكان يجالس الفقهاء والعلماء والعباد والصالحاء... وقد كان عبد الملك قبل الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء، الملازمين للمسجد، التالين للقرآن... وقد قال نافع:) المدني إمام القراء في المدينة في عهده (لقد رأيت المدينة وما فيها شاب أشد تشميراً، ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من

عبد الملك بن مروان) ... فماذا جرى له بعد ذلك؟ قال ابن كثير: (لما سُلِّمَ على عبد الملك بالخلافة كان في حجره مصحف، فأطبقه وقال: هذا فراقٌ بيني وبينك) «البداية والنهاية، ج ٩، ص ٧٦».

ومن بين هذه العوامل دور الحواشي والمهللين والمدّاحين الذين يُقدِّمون على ذلك حباً لهذا المرشح/النائب، وعن صدق وإخلاص.. أو الذين يُقدِّمون على ذلك نفاقاً وتزلفاً من منطلق المصلحية والرغبة في الانتفاع. وما أكثر هذا النموذج في كل مكان وزمان!

ثناء وشعر ومديح وانحناءات.. هذا يقبّل رأسه، وآخر يهرول لحمل حقيبته، وثالثٌ يهتف بالصلوات، ومجموعةٌ تكتب فيه المقالات تعظيماً وتبجيلاً، وآخرون يُطلقون عليه الألقاب، وأمثال ذلك من تصرّفات تُخضع لها أكبر رأس.

عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (خرج أمير المؤمنين «عليه السلام» على أصحابه وهو راكب، فمشوا خلفه، فالتفت إليهم فقال: لكم حاجة؟ فقالوا: لا، يا أمير المؤمنين، ولكننا نحب أن نمشي معك. فقال لهم: انصرفوا، فإنّ مشيَ الماشي مع الراكب مفسدة للراكب)

حيث يدخل في قلبه العُجب (ومذلةً للماشي) والله لم يخوّل للمؤمن أن يذل نفسه بهذه الطريقة، بل بالتواضع المعقول (قال: وركب مرة أخرى فمشوا خلفه، فقال: انصرفوا، فإنّ خفق النعال خلف أعقاب الرجال مفسدةٌ لقلوب النّوكى) «بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٥٥»، والنوكى هم الحمقى ويعني بهم من لديهم القابلية للسقوط والتهايي نتيجة هذه المؤثرات التي يستسلمون لها ويتنازلون عن تقواهم وأخلاقهم بسببها.

• الشيخ المقتول:

يُقال أنّ أحد المشايخ الفضلاء في إحدى قرى البحرين قبل أكثر من مائتي عام كان يحضر درساً لأحد الفقهاء الكبار في قرية أخرى، ومن طبيعة الطلاب المحبّين المعجّبين بأستاذهم أن يخضعوا لآرائه فلا تنقذ في أذهانهم الأسئلة والإشكالات، وكأنّ لسان حالهم: وهل يمكن لأحدنا أن يفهم أكثر من هذا الفقيه العظيم؟ ولكن هذا الشيخ الوافد على الدرس كان -على خلاف بقية الطلاب- كثير السؤال والاستشكال. بالطبع كان الأستاذ مأنوساً به لأنّ الإشكالات تفتح آفاقاً له وللطلاب، ولربما تؤكد صحة نظريته من خلال الأدلة والتوضيحات، كما أنها دليل حضور

ذهن الطالب واستفادته، إلا أن سائر الطلاب لم يفهموا الأمر بهذه الصورة، وأبدوا انزعاجهم وتبرّمهم مما اعتبروه إهانة لفقيهم، وصاروا يتحدثون عن ذلك في أوساط الناس، فما كان من بعض أهل هذه القرية إلا أن كمنوا له في بعض الأزقة، وأوسعوه ضرباً حتى مات! ولما افتقده الأستاذ قالوا له: لا تُزعج نفسك بعد اليوم يا مولانا، فقد أرحناك منه إلى الأبد!

• ضرار بن ضمرة:

دخل ضرار بن ضمرة على معاوية، فطلب منه أن يصف علياً «عليه السلام» فكان في جملة قوله في وصفه: (كان والله شديد القوى، بعيد المدى، يتفجر العلم من أنحائه، والحكمة من أرجائه) ويستمر في وصفه لعظمة علي إلى أن يقول: (ونحن مع تقريبيه لنا أشد ما يكون صاحب لصاحب هيبة، لا نبتدئه الكلام لعظمته)... ولكن كيف كان علي معهم؟ قال: (وكان فينا كأحدنا) «شرح نهج البلاغة، ج ١٨، ص ٢٢٥»... كل هذه الصفات والعظمة في شخصية علي «عليه السلام»، إلا أنها لم تُضخم شخصيته، ولم تنفخ فيه روح الكبر والتعالي على الناس... ولكن كم من الناس يمكن

لهم أن يحافظوا على توازنهم في مثل هذه الحالة؟ من الذي
يَسْلَم من خفق النعال خلف أعقابه؟

• من وصايا النبي:

السلامة في هذه المواضع تحتاج إلى وقاية من الإنسان نفسه... جاء في وصف رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (لا يُوطَّن الأماكُن) لا يرضى بأن يُقال هذا المكان البارز له، وذاك لفلان، وذاك لعلان كما نفعل نحن في مجالسنا (وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى) أي النبي بنفسه وبِعَظَمَتِهِ وِجَلَالَةِ شَأْنِهِ (إلى قوم، جلسَ حيث ينتهي به المجلس. ويأمر بذلك) «مكارم الأخلاق، ص ١٤».

وبيَّن لنا «صلى الله عليه وآله» بعض المؤشرات التي تدلُّ على أن الخلل بدأ يدبُّ في الإنسان من باب التعظيم حيث قال: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتِمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَاماً، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ) «المعجم الكبير، ج ١٩، ص ٣٥١».

وأراد لنا أن نتخذ إجراءات في هذا السبيل، ففي صحيح مسلم عن المقداد: (أَنْ رَجُلًا جَعَلَ يَمْدَحُ عِثْمَانَ، فَعَمِدَ الْمَقْدَادُ فَجَثَا عَلَى رَكْبَتَيْهِ فَجَعَلَ يَحْثُو فِي وَجْهِهِ الْحَصْبَاءَ، فَقَالَ لَهُ عِثْمَانُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ «صلى الله

عليه وآله» قال: إذا رأيتم المدّاحين، فاحشوا في وجوههم التراب) «صحيح مسلم، ح ٥٢٣١».

• الحذر الحذر:

الأمر مدّمر.. ولذا كان الإمام زين العابدين «عليه السلام» يقول في دعائه: (ولا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي مثلاً، ولا تُحدث لي عزاً ظاهراً إلا أحدثت لي ذلةً باطنةً عند نفسي بقدرها) «الصحيفة السجادية، الدعاء ٥٥». من أراد أن يحفظ نفسه من هذه المهلكة عليه أن يكون صادقاً في مثل هذا الدعاء.

والأدهى أن البعض لا يكتفي بتعظيم هذا المرشح/النائب وتضخيم صورته، بل ويجرّ ذلك إلى أبنائه وأفراد أسرته.. ويصل بالبعض - وهو ذو الشيبة - أن يتذلل لأحدهم وهو طفل لم يخط شاربته!

وهذا يعني أنّ علينا ونحن نتفاعل إيجابياً مع أيّ مرشح أو نائب، أن نسائل أنفسنا: هل المطلوب منّا أن نستغرق في شخصه، أم في إنجازاته، وفي تقواه وأخلاقه، وفي مدى التزامه بالقيم والمبادئ والوعود؟ فبأيدينا - متى ما جعلنا دورنا التهليل والتصفيق والمديح - أن نصنع من

أحدهم طاغوتاً صغيراً، يرى نفسه فوق أن يُخطيء، وفوق أن يُنتقد! فلنعوّدهم على الصراحة والشفافية والرقابة والنقد، كي لا يرى أحدهم أن طريق الفساد بالنسبة إليه معبّدة.. ولنجعل من النقد ثقافةً مقبولة، لا نريد به تجريحاً وتسقيطاً، بل إصلاحاً وتقويماً... بل ولنرتق بموقفنا من النقد إلى المقاطعة والبحث عن البديل متى ما وجدنا من أحدهم تعالياً وإصراراً على الفساد أو الانحراف أو خُلُفاً للعهود والمواثيق.

• ضياع البوصلة:

كما أنّ في أجواء الانتخابات، يتّجه البعض من المرشحين إلى التركيز على إحدى الجوانب المشتركة مع الناخبين، واعتبارها منطلقاً شبه إلزامي- بحُكم العقل أو العاطفة أو العادات والتقاليد- للتصويت له، بغضّ النظر عن مدى صلاحيته لأن يكون ممثلاً عن المجتمع في البرلمان، وبغضّ النظر عن مدى فساده على المستوى السياسي والإداري.

وبذا يتحوّل الناخب الذي يستسلم لمثل هذا الطرح إلى ناخب موجّه فاقدٍ لحرية الاختيار، وفاقدٍ للأساس السليم الذي من خلاله يتّخذ الموقف الوطني الصحيح عند

التصويت، فيصبح وكأنه مستسلماً لإرادة الغير، وكأنه ريشة في مهبّ الريح.

في القرآن الكريم تحذير من الاستسلام لبعض العناوين التي لا تركز على أسس سليمة عندما يبني الإنسان المؤمن موقفه ويوجّه مشاعره: قال «تعالى»: ﴿لَا تَحِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ «المجادلة».

صحيح أن هذه الآية الشريفة تتحدث عن موقف الإنسان المؤمن ومشاعره تجاه الآخر الذي رفع لواء الحرب والمعاداة لله عز وجل ولرسوله «صلى الله عليه وآله»، ومسألة الانتخابات لدينا ليست من هذا الباب، ولكن علينا أن نلاحظ أن الآية تقدّم معياراً عاماً في اتخاذ المواقف وتوجيه المشاعر.

فقد اعتاد كثير من الناس أن يجعلوا من القرابة أو الانتماء العشائري منطلقاً للولاء والتبعية والطاعة والمشاعر

الإيجابية، ولذا فإن هذه الآية الشريفة تنبهه إلى أن مجرد هذه الصلة أو هذا الانتماء لا يجب أن يكون هو المعيار في ذلك لدى الإنسان المؤمن، بل لابد من الأخذ بعين الاعتبار مدى صلاحية الطرف الآخر للموالة والتبعية والطاعة والمشاعر الإيجابية.

لذا -عند التصويت- من المهم أن يؤخذ بعين الاعتبار أن أساس الاصطفاف واتخاذ الموقف لا يعتمد على الانتماء الأسري ولا القبلي، ولا يعود إلى المزاج والعاطفة المحضة، ولا على أساس الصداقة والمحسوية الاجتماعية، بل يقوم على أساس من هو الأجدر بهذا الاصطفاف، ومن هو الأصلح لينهض بمسئولية تمثيل المواطنين في مجلس الأمة. تماماً كما هي مسألة الشهادة حيث يُفترض بالإنسان أن يكون مبدئياً لا متبوعاً لهوى نفس، ولا مراعيّاً لعناوين معينة، ولا مستسلماً لحرص اجتماعي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ «النساء».

وقد اعتدنا في يوم الانتخابات أن تتوزع الولاءات

والانحيازات والاصطفافات وفق عناوين معروفة، وكثير منها (موجّه) وفق معايير تقليدية، وهذا ما جعل الكثير من المجالس السابقة تعمل وفق نمط معين متكرر، الأمر الذي أفقد ثقة شريحة من المجتمع بمجلس الأمة والدور المؤمل منه ودفعهم إلى العزوف عن التصويت. ولو أن الناخب يعي تبعات صوته الذي يُدلي به في لحظة مُستصغرة من الزمن، لشعرَ بثقل تلك اللحظة، وفكر من قبل وتدبر فيمن يستحق أن يضع ثقته فيه، ويُسلم أمانة البلد بيده.

• صعوبة الأمر:

وإذا كان البعض يستصعب تجاوز تلك العناوين، فعليه أن يستذكر الحالة المبدئية التي عاشها أنصار رسول الله «صلى الله عليه وآله» وهم يواجهون آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وعشيرتهم في ساحات المعركة، فيقتلون ويُقتلون، وقد استرخصوا كل شئ في طريق نصرته المبدأ وإحقاق الحق... ومن خلال ثباتهم هذا نالوا الوسام الإلهي المتمثل في قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ «التوبة».

وللإمام علي «عليه السلام» كلمة يصف فيها ذلك الوضع الصعب، والإصرار الكبير الذي تحققت من خلاله

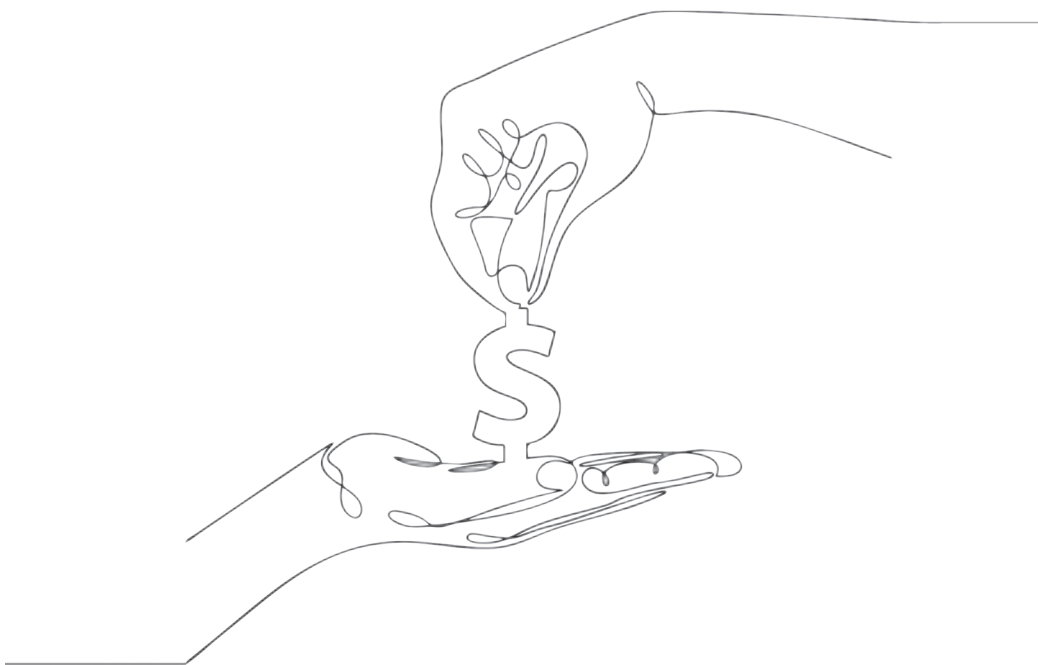
الانتصارات، قال في الخطبة ٥٦ من نهج البلاغة: (وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ «صلى الله عليه وآله» نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقَمِ) جادة الطريق (وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الْأَلَمِ، وَجِدًّا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ) ونحن هنا بحمد الله لا نتكلم عن موقف قتال ولا حرب ولا جهاد، بل موقف مبدئي مرتبط بالتصويت لمصلحة الوطن والناس، فهل ننجح في هذا الاختبار الأسهل؟ (وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلَانِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ، يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمُنُونِ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا) أي مرة ننتصر عليهم ومرة ينتصرون علينا (فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بَعْدُونَا الْكِبْتَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ مُلْقِيًا جِرَانَهُ وَمَتَبَوُّنًا أَوْطَانَهُ) ثم يصف حالة التخلي عن المبدأ وغلبة العاطفة والعناوين الاعتبارية على الحق: (وَلَعَمْرِي، لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، وَلَا اخْضَرَّ لِلْإِيمَانِ عُودٌ، وَأَيُّمُ اللَّهِ، لَتَحْتَلِبْنَهَا دِمَاءً، وَلَتَتْبَعْنَهَا نَدَمًا) أي أَنَّ التخلي عن الموقف المبدئي له تبعاته السلبية.

• المحكّ الحقيقي:

إنّ المحكّ الحقيقي والاختبار الفعلي لكلّ ناخب إنما يكون في يوم الانتخابات، حيث يكتشف من خلاله مدى التزامه وصلابته في الموقف المبدئي الذي يتطلّبه الوطن في عملية الانتخابات البرلمانية، بين أن يكون ناخباً موجّهاً ومقبولاً قد ألغى عقله في اتخاذ قرار التصويت، وجعل نفسه تابعاً لعنوان أسري أو قبلي أو حزبي أو مذهبي أو غير ذلك من العناوين التي لا تحقق لوحدها الصلاحية لدى المرشّحين، وبين أن يكون ناخباً حراً، يختار الأصلح لحاضر البلد ومستقبله، ولخير هذا الجيل وخير الأجيال القادمة.

إن تجارب الماضي وخبرات الحاضر تُحمّلنا مسؤولية حسن اختيار المرشح الذي نريد له أن يمثّل المواطنين -كلّ المواطنين- في مجلس الأمة، فقد خُذِل الناس وغرّر بهم أكثر من مرّة، وساهم الناخبون أحياناً بقراءتهم السطحية للأفراد أو الجماعات، أو من خلال تعجلهم في اتخاذ القرار، فأوصلوا مَنْ لم يُمثّلهم خير تمثيل.. ولربما قضى أحدنا وقتاً طويلاً وبحثاً معمّقاً ومضى في استشارات كثيرة وهو يريد أن يختار لنفسه سلعة استهلاكية، بينما لا يستغرق

اختياره للمرشح سوى لحظات... هذا إن فكر أصلاً ولم يكن مُبرمجاً وموجهاً في الاختيار. فليكن الناخب حريصاً دقيقاً في اختياره، ولا يجعل أفقه ضيقاً محدوداً بمصلحته الشخصية، أو منقاداً للعناوين القبلية والعائلية والطائفية وأمثالها، بل يجعل من المصلحة العامة منطلقاً في اختيار الأصلح.





المجتبى والقادة الفاسدون

الرشوة - في المفهوم الفقهي الخاص- تخصّ الرشوة في مجال القضاء، وهو المورد المشار إليه في قوله «تعالى»: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة)، فالرشوة عبارة عن إدلاء المال إلى الحكّام بهدف أكل أموال الناس بالباطل، من خلال إصدار الحكم الباطل. وهناك الرشوة في المفهوم العام الواسع، كصورة من صور الفساد السياسي أو الإداري أو غيرهما، لا في مجال القضاء فحسب، وهو سلوك منحرف ظهر في عهود مبكّرة

من التاريخ، وحَفِظَتْ لنا المدوّنات القديمة صوراً من ذلك، كما في إحدى الألواح الطينية السومرية والتي تعود إلى ما قبل أربعة آلاف سنة تقريباً، حيث تتكلم عن طالب كان يعامله أستاذه في المدرسة بطريقة سيئة ويتعمد تجاهله دائماً وينهره ويضربه بالعصا على كل صغيرة وكبيرة، فذهب الولد الصغير إلى والده واشتكى له ما يعاني منه، ففكر الأب ملياً ووجد حلاً مازال يُطبّق في معظم المجتمعات حول العالم... دعى هذا الأب معلم ابنه لوليمة في بيته، وكأنها وليمة تعارف بينهما، وأعطاه مالا وملابس، ووضع في إصبعه خاتماً ثميناً... في اليوم التالي جاء الولد من المدرسة فرحاً مسروراً، فسأله والده ما الأمر؟ فقال: المعلم اليوم مدحني أمام الطلاب!!

وهكذا وجد المحققون في إحدى البرديات المصرية أسماء مجموعة من الموظفين المرتشين، وما حصلوا عليه من رُشى في مقابل (تسهيلات) معينة.

ولعلّ في قصة النبي سليمان «عليه السلام» ومملكة سبأ نموذجاً من نماذج الرشوة في التاريخ القديم وتعود إلى قرابة ثلاثة آلاف سنة، حيث قالت الملكة: ﴿وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ

فَنَازِرَةٌ يَمْ يَجْعُ الْمُرْسُلُونَ ﴿٣٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أَتَيْدُونِي بِمَالٍ
فَمَا ءَاتَيْنِ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِيكُمْ تَفْرَحُونَ
﴿٣٧﴾ «النمل».. لقد أسمتها هدية، ولكنها في واقعها محاولة
شراء ذمة.. وبمعنى آخر رشوة، ولكن على مستوى دولي.

● قاعدة وتحذير:

الآية ١٨٨ من سورة البقرة قَدِّمَتْ قاعدة عامة تمثلت في
التالي: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ...﴾ ﴿١٨٨﴾ حيث
استفاد منها الفقهاء في موارد عديدة، ومن بينها حكم
الرشوة بالمفهوم العام لا الخاص بالقضاء.

ونجد في نهج البلاغة إشارة إلى مدى خطورة الرشوة
كصورة من صور الفساد، وذلك في الكتاب الذي كتبه الإمام
علي «عليه السلام» إلى أمراء الأجناد بعد استخلافه، وفيه:
(أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا النَّاسَ
الْحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ، وَأَخَذُوهُمْ بِالْبَاطِلِ فَاقْتَدَوْهُ/ فَاقتَدَوْهُ) «نهج
البلاغة، الكتاب ٧٩».

وهذا للأسف ما بات ينتشر في بعض مفاصل الإدارات
الحكومية، حيث يعرقل الموظف أو المسئول المعاملة، أو

يؤخر إجراءاتها، أو يتمّ تضييع أوراقها، على أمل الحصول على شيء من المال أو ما شابه، وهو ما تلخّصه عبارة: (مَنْعُوا النَّاسَ الْحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ)، وليس لهذا من مصير سوى (أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ) ... فهذا السلوك الفاسد يستبطن تدميراً تدريجياً لأي وجود مؤسساتي:

١. لإخلالها بالمساواة بين أصحاب المعاملات، مما يؤصّل حالة التخالف ومن ثم التصارع بين مكونات المجتمع، بدلاً من تأصيل التوافق والتكامل المجتمعي.

٢. فقدان الثقة بالدولة وبمؤسساتها، بما في ذلك مؤسساتها القانونية المسؤولة عن تطبيق العدالة.

٣. تغليب المصلحة الفردية (مصلحة الموظف) على المصالح العامة.

٤. فتح الباب أمام صور أخرى من الفساد.

٥. تضييعها الحقوق.

وهذا جانب مما ابتلي به الإمام الحسن بن علي المجتبى «عليه السلام» في معاناته مع بعض القادة وكبار معاونيه حين صار بعضهم بين خيارين حاسمين، في القرارات

الكبرى والمصيرية بالنسبة إليهم.. إما الدنيا، وإما الآخرة، في الوقت الذي تكون فيه الصورة جليّة.. فيختارون الدنيا لا عن جهل، بل لأنهم يحبون العاجلة، وقد تعرّض القرآن في أكثر من مورد لهذا النموذج الفاسد من الناس، ومن ذلك قوله «تعالى»: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝٧٧﴾ «الإنسان»، وقوله «تعالى»: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝٣﴾ «إبراهيم»، ومن خلال هذا القرار المصيري القائم على قبول الرشى، ينطلقون لتقوية مواقع الباطل، ضد أولياء الله، وضد الدعاة إلى الله، ولعرقلة مسيرة الدين وتحريفها، أو لتحديد مواقفهم، ولذا جاء في الآية ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۝٣﴾.

هؤلاء قد يكونون من القادة والمقاتلين، كما هو حال عمر ابن سعد في مواجهة الحسين «عليه السلام»، الذي قال:

أترك ملك الرّي والرّي مُنيّتي

أم أرجع مأثوماً بقتل حسين؟

وقد يكونون من الوجهاء أو زعماء العشائر أو السياسيين أو الأدباء، بل وحتى من العلماء، وإلى المستوى الذي يصيب

بالغثيان. روى الخطيب البغدادي: (أن أبا البختری دخل وهو قاض على الرشید، وهو إذ ذاك يُطَيِّر الحمام فقال: هل تحفظ في هذا شيئاً؟ فقال: حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبي «صلى الله عليه وسلم» كان يُطَيِّر الحمام، فقال الرشید: اخرج عني. ثم قال: لولا أنه رجل من قريش لعزلته) «فتح المغيـث، ج ١، ص ٢٥٩».

وللشيخ عبدالسلام ياسين -مؤسس جماعة العدل والإحسان في المغرب- كلمة جميلة في هذا الشأن، قال: (كان في الكوفة عشرة رجال هم شيوخ العشائر وقادة الرأي العام كما نعبّر في زماننا. اشترى ضمائرهم المغيرة بثلاثين ألف درهم وبعثهم مع ابنه موسى إلى معاوية ليقترحوا عليه تولية يزيد ابنه العهد من بعده. حاشية تتزلف، والتمتزلف إليه ماهر في معرفة اللعبة. فسأل معاوية موسى: بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال موسى: بثلاثين ألف درهم. قال معاوية: لقد هان عليهم دينهم) «الشورى والديمقراطية، ص ٢٥٠». نعم، هان عليهم دينهم، فباع كل منهم دينه وأخرته بثمن يتناسب ونقطة ضعفه. قال الشيخ ياسين: (كان الأتقياء شحيحين بدينهم، وكان المنافقون

يُتاجرون في الدين.. أما زيادٌ فقد كان من قوَّاد جيش الإمام علي «كرم الله وجهه»... ولم يكن لبيع دينه وكفائه بدهام ودنانير.. فاستلحقه معاوية بنسبه، وأمره على البصرة ثم الكوفة... خزي الزنى، وخزي أبناء الزنى، وخزي اصطناع أبناء الزنى لدعم عرش ملكي... ما نشاهده اليوم من حمية وغضبٍ عند إخواننا الشيعة، إنَّ هو إلا انفجار لما بقي يغلي في صدور المسلمين من غيظٍ على ما فعله بنو أمية بآل البيت).

● معاناة الإمام المجتبى:

وقد عانى الإمام الحسن «عليه السلام» من هكذا نموذج أيما معاناة، لأنَّ منهم مَنْ كان من الأعيان والقادة، بل إنَّ منهم مَنْ كان من أقربائه، فتخلَّوا عن نصرة الحق، وإمام الحقَّ وصدَّوا عن سبيل الله بعد أن باعوا آخرتهم بدنيا حقيرة.

عندما شكَّ الإمام الحسن القسم الأول من الجيش، وهو المقدمة، جعل القيادة لعبيد الله بن العباس، وبحلولهم في (مَسْكَن: جنوب سامراء بعد بلدة الدجيل) وصلت الرُّشى لمجموعة من زعماء القبائل المكوَّنة للجيش، وهي بين مبالغ

مالية ومناصب رفيعة، فتسللوا من معسكر الحسن والتحقوا بمعسكر معاوية، وكتب عبيد الله إلى الإمام بما جرى. ثم أغري القائدُ عبيدُ الله نفسه بالرشوة، بمبلغ مليون درهم، نصفها معجّلة، فانسحب إلى معسكر الشام، وروي أن ٨٠٠٠ مقاتل انسحبوا معه، حتى أصبح الباقيون وليس لهم إمامٌ يصلي بهم الفجر!

وكان الإمام «عليه السلام» قد بعث قائداً من كندة إلى الأنبار، ومعه أربعة آلاف مقاتل، فأرسل إليه معاوية: (إنك إن أقبلت إليّ، أولئك بعض كور الشام والجزيرة غير منفس عليك) «الفصول المهمة في معرفة الأئمة، ج ٢، ص ٧٢٣»، أي لتصرف فيها كما تشاء. وأرسل إليه خمسمائة ألف درهم، فانحاز الكندي إلى معاوية ومعه مائتين من خواصه! ولما أرسل الإمام «عليه السلام» قائداً بديلاً من (مراد) مقسماً أن لا يخون، فإذا به يُكرّر ما فعله صاحبه!!

ثم تحوّل الأمر إلى ظاهرة مغرية، بحيث بات أمثال هؤلاء يبادرون بمكاتبة معاوية عارضين عليه بيع دينهم وآخرتهم!! أما الإمام الحسن «عليه السلام» فقد كان حينها في (المدائن: جنوب بغداد) لاستكمال تشكيل جيشه، فلما

سمع مَنْ في معسكره بتبدّل الحال، انقلبوا عليه، ونهبوا ما في المعسكر، وحاولوا اغتياله وأصيب بخنجرٍ في فخذه... وكانت هذه الأحداث حاسمة بشكل كبير في اتخاذ الإمام قرار الصلح.

هذا النموذج الفاسد والمنافق لعبيد الله بن العباس وذلك القائد الكندي ومن بعده المُرادِي، من الذين باعوا آخرتهم بديانهم، وانقلبوا من معسكر الحق إلى معسكر الباطل، فصدّوا عن سبيل الله «عز وجل»، هذا النموذج لا تختزنه أحداثُ التاريخ فحسب، بل إنّ مصاديقه تتجلى في كل زمان، كعين الشمس.

وكم عايشنا من سياسيين ومراهقي عالم السياسة وحزبيين وزعماء وعلماء قد نحوا هذا المنحى، فباعوا ضمائرهم وأوطانهم ووعدهم وموathيقهم وأيمانهم والمصالح العامة مقابل المال أو الشهرة أو المنصب أو الزعامة، باعوا آخرتهم بديان زائلة، في مواقف مصيرية.. إنّ قُبْحَ هذه الصورة لا يُغَطِّيهِ شيء، وإنّ سعى كثيرٍ من الناس لتزيينها، ولخداع أنفسهم قبل أن يخدعوا الآخرين.. فمهما صَفَّقوا لهم ومجّدوهم واختلقوا لهم المبررات، اغتراراً

بهم، أو طمعاً في شيء من فتات موائدهم الملوثة.. ومهما أمهل الفاسدون فتمتعوا بما منّوا به أنفسهم، إلا أنّ ما سودوه من صفحات التاريخ سيبقى شاهداً عليهم، وليأحقهم عارُ ما فعلوا: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٨٦) «البقرة».

• ضرورة الحسم المبكر:

لربما تصوّر بعض أولئك القادة وكبار الشخصيات الذين قبلوا الرشى أنّ ما قاموا به أمر شخصي، وأنّ حدود تأثيراته شخصية أيضاً، أو ذات تأثير على دائرة ضيقة، ولكنّ الواقع أنّ سوسة الفساد متى ما نخرت في جهة، انتشرت واستفحلت وأصبحت ظاهرة واسعة الامتداد، خطيرة النتائج، وهو ما حذر منه أمير المؤمنين «عليه السلام» حيث اعتبر أنّ النتيجة الوحيدة لذلك هو الهلاك: (فإنّما أهلك من كان قبلكم أنّهم منعوا الناس الحقّ فأشتروه، وأخذوهم بالباطل فأقتدوه).

من هنا، فإنّ الاعتراف بوجود مرض الرشوة ومواجهته في بدايات ظهوره بكل حزم، أفضل بمراتب من السكوت عنه حفاظاً على السمعة الإيجابية، لأنّ تغطية العفن لن

يَقْضِي عَلَيْهِ، بل سيزيدُ العفونةَ استفحالاً واستحكاماً. وإذا ارتشى الموظف البسيط وتمّ التساهل معه، والتغاضي عن فساد، فسيأتي اليوم الذي يرتشى فيه القاضي، ويرتشى فيه المسئول الكبير... وقد تكون الصورة معكوسة حيث تبدأ الرشوة عند كبار المسئولين، فيشجع ذلك صغار الموظفين على الانخراط في عالم الفساد... وَمَنْ تَهِنْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ هَانْ عَلَيْهِ وَطْنُهُ.





لو تتبعنا الآيات القرآنية التي تطرقت لعنوان الفساد

فسنجد أنها تحدثت عن الموارد التالية:

١. الفساد في الدين: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِءَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ

بِهِءَ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿يونس﴾

٢. الفساد الأمني: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ

وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا

وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٣٢﴾ «المائدة»

٣. الفساد الاقتصادي: ﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَقَوْمُ

«عَبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٢١﴾﴾
«العنكبوت»

٤. الفساد الاجتماعي: ﴿...وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ «البقرة»

٥. فساد الحكام: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠١﴾﴾ «القصص»

٦. فساد حاشية الحكام: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ «النمل»

٧. فساد عليه القوم وسادتهم: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ «الشعراء»

٨. فساد قوم محددين: ﴿وَفَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ «الإسراء»

٩. فساد الأثرياء: ﴿وَأَنْبَغُ فِيمَا عَاتَلَكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ قَالَ إِنَّمَا

أُوتِيَتْهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٨﴾ «القصص»

وسأتوقف عند المورد الأخير المتمثل في الصورة التي تمّ تقديمها من خلال النموذج القاروني، ومن ثمّ أستخلص بعض الفوائد والقواعد القرآنية التي تُعالج موضوع الفساد، وقايةً منه وعلاجاً.

تذكر الآية الأولى أربع قواعد للتعامل مع النعم التي أنعم الله «تعالى» بها على عباده:

١. ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ فعندما يضع الإنسان هذه الغاية الأخروية كدافع حقيقيّ ورئيس في كسب الرزق وفي الإنفاق، فإنه سيعمل على أن يكون طلب الرزق -وكذلك موارد الإنفاق- ضمن حدود ما يُرضي المنعم «عز وجل»، والذي لا يمكن أن يلتقي مع أيّ عنوان من عناوين الفساد، أو ما يكون ضرره أكثر من نفعه.

٢. ﴿وَلَا تَنَسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ فلا حرمان من التصرّف بنعم الله «عز وجل» في شئون الدنيا وملذّاتها، ولكن على

الإنسان أن يُدرك أن هذا الأمر مقدّر بقدر.. فهناك نصيب من هذه النعم يحقّ للإنسان التلذّذ والتمتّع به، ولكن عندما يتجاوز ذلك، فإنه سيُعدُّ مسرفاً أو مهملاً لحقّ الله «تعالى»، ولنصيب الآخرة منه.

٣. ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فالمطلوب أن يكون الإنسان -بواسطة هذه النعم- عنصراً مفيداً للمجتمع، فيسخّر منها ما يعود على شركائه في هذه الحياة بالخير، متخلّفاً بأخلاق الله في الإحسان.

٤. ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ لا توظّف قدراتك وإمكاناتك وأموالك في الفساد، فالفساد بمثابة السوسة التي تنخر في جسد النعم، فتدمرها... ومن يريد أن يحافظ على نعم الله عليه، فلينزّه نفسه عن الفساد والإفساد.

● سعة موارد الفساد:

في هذا العصر صور متنوعة للفساد، وعلى أكثر من صعيد، وقد لا يتبادر إلى أذهان البعض أنّ الدين يتحدّث عن بعض منها، لأنّ الصورة النمطية لمصاديق الفساد في الذهنيّة العامّة مرتبطة بالزنا وشرب الخمر مثلاً، بينما قد تغيب عن الأذهان أن سرقة الأموال العامة -في نظر الدين-

من الفساد.. وهكذا بالنسبة إلى الرُشى في عالم المحاكم والتقاضى.. والترقية الوظيفية عندما تأتي بلحاظ ديني أو مذهبي أو قبلي أو أسري أو حزبي، لا بلحاظ الاستحقاق.. والغش التجاري من الفساد.. والاحتكار.. وغسل أموال تجارة المخدرات والعصابات.. وإهمال الموظف في أداء مهامه الوظيفية.. وعلى هذا ففس.

كما وليس بالضرورة أيضاً أن يكون الإنسان تاركاً للصلاة، شارباً للمسكرات، معاشرّاً للفاسقات كي يكون فاسداً، بل قد يكون الفاسد مصلحاً صائماً حاجاً، بل وحتى مُخرجاً للزكاة... ولكنه مع هذا يُمارس الفساد والإفساد.

وهكذا، وليس بالضرورة أن يكون الفاسدُ المفسدُ فرداً، فقد يكون مؤسسة، وقد يكون برلماناً، كما قد يكون حكومة.. وعليه فإنّ القواعد الأربع التي ذكرتها الآية لا تخصّ عمل الأفراد فحسب، بل تسري على الكيانات أيضاً.

وعندما يمتزج ذلك كله بالغرور والاستكبار والتّعالي على النصيحة المقدّمة من المخلصين والمحبين والساعين للخير والإصلاح، فإنّ النتيجة ستكون خطيرة على المستويين الدنيوي: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ

هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴿١٠﴾ وَالْآخِرُونَ: ﴿١١﴾ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾.

وكما أنّ المقدمات لا تخصّ الأفراد فحسب، فإنّ النتائج الخطيرة المترتبة على خرق القواعد الأربع في التعامل مع نعم الله «تعالى» تسري -أيضاً- على الكيانات كما تسري على الأفراد، مع التنبيه على أنّ الإهلاك لا يكون -بالضرورة- من خلال فعل خارق كما حصل لقارون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ ﴿١٣﴾.. أبداً.

• تفسير علمي لانتشار الفساد:

العديد من الأبحاث تؤكد أنّ عدم النزاهة يولد عدم النزاهة، والفساد يولد الفساد، وهو ما يؤدي إلى الانتشار السريع -في المجتمع- لسلوك يتنافى مع الدين والأخلاق. إحدى الإحصائيات الصادرة عام ٢٠١٧ تُظهر أن واحداً من بين كل أربعة أفراد ممّن شملتهم إحدى الاستطلاعات، صرّح بأنّه دفع رشوة لقاء خدمات عمومية خلال ٢٠١٦. وأظهرت أيضاً أنّ هذا النوع من الفساد منتشر في الشرق

الأوسط وشمال إفريقيا أكثر من سائر المناطق الجغرافية التي شملها الاستطلاع.

وقدّمت إحدى الدراسات في مجال علم النفس والاقتصاد السلوكي محاولة تفسيرية لتنامي الفساد وسرعة انتشاره في هذه المجتمعات، جاء فيها ما ترجمته: (تخيّل أنك توجهت إلى مقرّ بلديّتك لطلب استلام رخصة ترميم منزلك، وقد كنتَ تقدّمت بطلبك قبل أيام. فيقول لك الموظف إنه نظراً للعدد الكبير من الطلبات التي تلقّتها الإدارة أو القسم، سيستغرق معالجة ملفّك ٩ أشهر لإصدار التصريح، ولكن، إذا دفعت ١٠٠ دولار، فسوف نعالج ملفّك بسرعة. ستدرك في تلك اللحظة أنّ الأمر يتعلق بطلب رشوة للحصول على معاملة تفضيلية. من الجائز أن تتوالى عندئذ في ذهنك سلسلة من التساؤلات: هل أدفع لتسريع الأمور؟ هل سيفعل بعض أصدقائي وأقاربي نفس الشيء في مثل هذه الحالات؟ هل سيجرّني هذا لفعل مماثل في المستقبل؟).

ثم بيّنت الدراسة إلى أنّه من المحتمل جداً أن ينتج عن هذا العرض ما يلي:

١. مجرد التعرّض للفساد - وإن لم يستجب له الفرد - يعرّضه

للوقوع في الشَّرْك مستقبلاً ما لم يتم اتّخاذ تدابير وقائية. فالفساد يسري كالمرض المعدي بشدة، وتأثيره قائم من حيث تشعر ولا تشعر.. والخلاصة: هل ستؤثّر تجربتك تلك على ردّك إذا ما تعرّضت مجدداً إلى وضع مشابه؟

الجواب - بحسب هذه الدراسة - مُثَبَّت.. لأنّ تلقّي طلب رشوة يؤدّي إلى تآكل «الشخصية الأخلاقية» للفرد، مما يدفعه إلى التصرف بشكل غير نزيه في القرارات ذات البعد الأخلاقي لاحقاً.

٢. عندما يلاحظ الأفراد في مجموعة ما (في إطار العمل أو الدراسة أو غيرها) أن هذا العضو -الذي تجاوب مع الفساد بشكل إيجابي لاحقاً- يتصرّف بطريقة غير شريفة، فإنهم يميلون إلى التصرف مثله بطريقة غير شريفة! ونتيجة لذلك تتآكل الأعراف والأخلاق الاجتماعية والمبادئ الدينية... وتتضخّم الحالة، وقد يبلغ «الورم» حدّاً يستعصي التخلّص منه.

٣. البعض مثلهم مثل مَنْ يتعاطى المواد المخدّرة، لا يكتفي بأن يتعاطاها، بل يسعى لأن يُبلي الآخرين بهذا الداء وتسويقه وتزيينه، فيكون ذلك عاملاً إضافياً لانتشار الفساد.

ولاحظ الباحثون -في هذه الدراسة- أنّ ميل الناس إلى التصرف غير النزيه يتشابه في جميع البلدان، ومع هذا وجدوا تمايزاً كبيراً في النتائج على الأرض من حيث نسبة الإقدام على الفساد والرشوة.. والسبب يعود إلى أنّ قوّة حضور المعايير الاجتماعية وصرامة تطبيق القوانين، أو العكس، أثّرت بشدة على التصورات والسلوكيات البشرية في المجتمعات المختلفة، وقد شجّعت تجارب الفساد الناجحة -التي لم يجد الفاسدون من يعاقبهم ويقتصّ منهم- على ارتكاب الآخرين للمزيد من موارد الفساد.

• تجربة لي كوان يو:

وبالفعل، فإنّ التجربة العملية لإعادة تشكيل سنغافورة في النصف الثاني من القرن العشرين على يد رئيس وزرائها الأسبق (لي كوان يو) ما كانت لتنجح لولا الصرامة في اجتثاث الفساد السياسي والإداري والقضائي.

ترأس (لي كوان يو) الحكومة من ١٩٥٩ إلى ١٩٩٠. وقد شهدت سنغافورة خلال حكمه نقلة كبيرة تحوّلت فيها من بلد نام إلى واحدة من أكثر دول العالم تقدماً. فحين استقلّت في العقد السادس من القرن العشرين كانت مجرد

محطة تجارية نائية ثلاثة أرباع دخلها من عائدات القاعدة العسكرية البريطانية، ودخل الفرد الحقيقي أقل من ١٠٠٠ دولار في السنة.

ومن خلال العمل المدروس والجاد والوطني من قبل هذا الرجل أصبحت سنغافورة حاضرة عالمية مزدهرة تمتلك أنجح شركة طيران في العالم، وأفضل مطار جوي، وأنشط ميناء بحري، وتحتل مرتبة عالمية متقدمة جداً في متوسط دخل الفرد حيث يبلغ ٣٠,٠٠٠ دولار أمريكي.

وقد اتخذ (لي كوان يو) عدة قرارات حازمة لتحقيق هذه النقلة النوعية:

١. تحديد النسل بشكل حازم، ولما تحقق الهدف وفق الدراسات العلمية غيّرت الدولة سياستها السكانية وحفّزت المواطنين لزيادة النسل، مع تخصيص ميزانية تقدر بـ ٣٠٠ مليون دولار.

٢. التعليم: بالتعميم والتحديث باعتماد أفضل المناهج في العالم، والآن تتصدر بلده - أحياناً - الأولمبياد الدولي في امتحانات المواد العلمية.

٣. التوظيف: اعتمد بيروقراطية صغيرة الحجم ذات كفاءة

عالية قوامها حوالي ٥٠ ألف موظف لا أكثر، وعلى درجة كبيرة من المهنية والتعليم والثقافة، على أن يتم التعيين في الوظائف عبر منازلات عامة مفتوحة للجميع، ويحصل موظفو القطاع العام على رواتب تنافسية مثل القطاع الخاص إن لم يكن أعلى.

٤. قرارات صارمة حول البيئة والنظافة: وتعدّ سنغافورة الآن من أكثر بلدان العالم نظافة.

٥. تحقيق الأمن الوطني الداخلي.

٦. والنقطة الأهم والأكثر حساسية ضمن مجموع الإجراءات المتخذة لنجاح المشروع تتمثل في اعتماد الشفافية وخفض نسبة الفساد الإداري والمالي، إلى حدّ باتت فيه سنغافورة -بعد إعمال خطته- تتصدّر المراتب الأولى لمؤشر الشفافية الذي تصدّره منظمة الشفافية الدولية. وهذا هو مرتبط الفرص في تفعيل مشروعه وإنجاحه، فمهما قامت أية حكومة بالإجراءات المطلوبة لتحقيق التنمية والقفزة النوعية في الأداء المؤسسي، فإنها ستفشل في نهاية المطاف -من دون شك- لأن وجود ثقب في جيب الاقتصاد الوطني من خلال الفساد، يعني ذهاب كل الجهود أدراج الرياح.





ترتسخ في أذهان بعض المتدينين صورة مغلوبة حول مسألة حفظ النظام في المجتمع، من خلال أنّ الالتزام بذلك مرهون بوجود دولة تقوم على أساس مطابق للشرعية الإسلامية وفق رؤية مدرسة أهل البيت «عليهم السلام» لمسألة الحكم، كدولة المعصوم، أما مع انتفاء ذلك فإن المسؤولية ترتفع عن المكلف، ويكون في حل من الأمر. والمقصود من النظام العام: (مجموعة القواعد والضوابط التي يتوقف عليها استقرار وتوازن الحياة الإنسانية على الأصعدة الاجتماعية والسياسية والأمنية والاقتصادية كافة).

من نافلة القول بالنسبة إلى العقلاء تأكيد الحاجة إلى النظام العام، وقد أكد القرآن الكريم على أن هذا الوجود المادي بأكمله قائم على نظام عام يحكمه: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۚ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ «الملك».

• النصوص الدينية:

كما تؤكد النصوص الإسلامية على أن من أهم مسؤوليات الأنبياء والأئمة هي إقامة النظام العام وحفظه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٥٥﴾ «الحديد».

أي أن تتحقق العدالة الاجتماعية، وهي ركن أساسي لتحقيق النظام العام. وعن علي «عليه السلام»: (الإمامة نظام الأمة) «غرر الحكم، ح ١٠٩٥»، وعنه «عليه السلام»: (أَوْصِيكُمْ، وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي، بِتَقْوَى اللَّهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ) «نهج البلاغة، ك ٤٧».

ولما كان وجود الحاكم ركناً آخر في منظومة حفظ

النظام العام قال علي «عليه السلام»: (لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتَعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيَبْلُغُ اللَّهُ فِيهَا الْأَجَلَ، وَيَجْمَعُ بِهِ الْفَيءُ، وَيُقَاتِلُ بِهِ الْعَدُو، وَتَأْمَنُ بِهِ السَّبِيلُ، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ، حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، وَيُسْتَرَاخَ مِنْ فَاجِرٍ) «نهج البلاغة، خ ٤٠». فخرق النظام وإشاعة الفوضى والتعدي على القوانين التي هي للصالح العام أمر لا يتسامح فيه الإسلام، وإن لم يكن الحاكم براً، وإن لم تكن البلد من بلاد المسلمين، لأن المسألة لا تتعلق بالحاكم، ولا بنوع الحكم، بل تتعلق بالمصالح العامة للناس، وحتماً أن الفوضى وكسر القانون مما لا يحقق هذا الصالح العام بل يضر به. ولذا اعتبر أمير المؤمنين «عليه السلام» أن: (شَرُّ الْبِلَادِ بَلَدٌ لَا أَمْنَ فِيهِ وَلَا خَصْبَ) «غرر الحكم، ح ٥٦٨٦»، والأمن والتنمية فرع حفظ النظام.

• النصوص الفقهية:

وعندما نأتي على المستوى الفقهي نجد أن حفظ النظام يقدم على الحكم الشرعي الأولي عند حدوث التزاحم بينهما، ومن أمثلة ذلك حرمة التصرف بممتلكات الغير دون رضا من المالك، إلا أن هذا الحكم الأولي يرتفع في

ما لو توقف تحقيق النظام على ذلك، كما لو كانت هناك حاجة ضرورية إلى شق طريق عبر هذه الممتلكات مع رفض أصحابها. وأكثر من ذلك، حيث أن في التشريعات الإسلامية مرونة للتعامل مع الظروف المتغيرة التي تفرض تغييراً ما إذا كان ذلك يصب في مصلحة تحقيق وحفظ النظام العام، كالعقوبة الجسدية المنصوصة لبعض المخالفات القانونية، حيث يمكن استبدالها بعقوبة مالية مثلاً انطلاقاً من أن حفظ النظام هو الأساس لنظام العقوبات، ولا دليل على أن العقوبة الجسدية هي الطريقة الوحيدة والتمتعّية في هذا المجال.. وقد أفتى المرجع الراحل السيد أبو القاسم الخوئي بجواز وضع غرامة مالية على الأشخاص الذين يعتدون على الطرقات العامة ووضع ما يضرّ المارة عليها، معللاً ذلك بحفظ المصالح العامة.

وهكذا الأمر بالنسبة إلى القضاء، فالأساس في القاضي -وفق الفقه الجعفري- أن يكون مجتهداً، ولكن لو استدعى حفظ النظام العام في المجتمع توفير قضاة من غير المجتهدين بسبب كثرة القضايا وشحّ القضاة، جاز ذلك وفق ما أفتى به بعض الفقهاء، مع رعاية الأكفأ فالأكفأ.

• الفقه الفردي:

ومن أهم أسباب تكوّن تلك الصورة المغلوطة حول مسألة حفظ النظام في المجتمع هو أننا عندما تعاملنا مع الفقه الإسلامي كفقه ذا صبغة فردية فقط، غفلنا عن العديد من الأصول والمقاصد الشرعية التي تمثّل أطراً له، وبالتالي حدّدنا في جانب من الصورة، وأغفلنا اللوحة بأكملها، حتى أصبح الإسلام الشخصي والشكلي الفارغ من مضمونه الإنساني هو المعيار والحكم في التدين. مع العلم بأن من الفقه ما له صبغة فردية كالوضوء للصلاة، ومنه ما له صبغة عامة كالأحكام التجارية والخمس والزكاة والأحوال الشخصية والأوقاف وغيرها كثير.

ومن خلال هذه القراءة المنقوصة للأحكام الشرعية لم يرَ بعض المتدينين بأساً في التعدي على الممتلكات العامة تخريباً أو نهباً، كما قد يبيحون لأنفسهم التلاعب في عدادات الكهرباء والماء أو الاختلاس من المال العام أو قبول الرشاوى، كل ذلك تحت ذريعة أن الحكومة لا تملك -من الناحية الفقهية- ما تحت أيديها من أموال، وأنها أموال مجهولة المالك، في تركيز على الجانب الفردي من

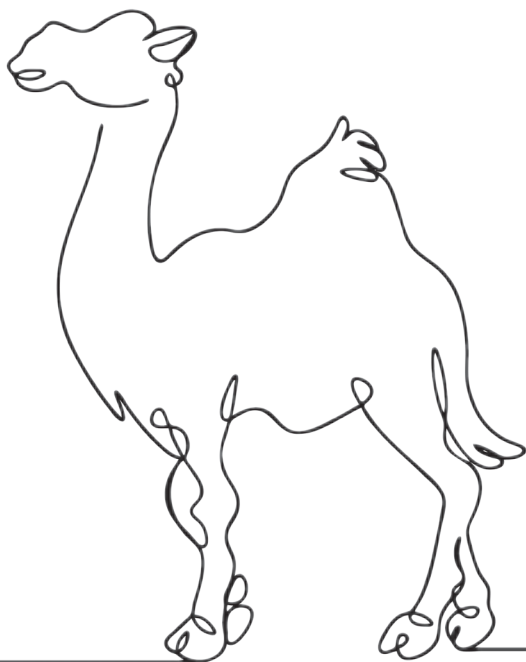
المسألة وغفلة عن أن القضية ليست فردية، بل هي ذات ارتباط وثيق بالنظام العام للمجتمع وبالتالي يحرم الإخلال به، تماماً كحرمة أكل الميتة مثلاً، والذي هو معصية ذات بُعد شخصي.

وهكذا أباح بعض المتدينين لأنفسهم خرق قوانين المرور أو القوانين البيئية أو تنظيم المدن أو التركيبة السكانية في المجتمع كقضية العمالة السائبة مثلاً، وغيرها من تجاوزات كثيرة، ما دام أن المكلف بعيد عن أعين الرقابة والمحاسبة، أو أنه يمتلك نفوذاً ما يتعالى به على القانون، وكل ذلك بذريعة أن الحكومة ليست حكومة المعصوم التي يجب فيها مراعاة النظام العام، في غفلة عن أن هذا الأصل لا علاقة له بطبيعة الحكم.

• من الأولويات:

إن حفظ النظام العام يأتي في أولويات الضرورات، لأن المحافظة على وجود الإنسان ومقومات استمراره تأتي في الدرجة الأولى من أولويات مراعاة الأحكام الشرعية، وكما يأثم الإنسان ويحاسب في الآخرة على المعاصي ذات البعد الفردي، فإنه يأثم ويحاسب على المعاصي ذات البعد العام،

بل يمكن القول أن حفظ النظام العام هو الأول والأولى في سلم الضرورات الإنسانية؛ وعليه يأتي في أول كبريات المحرّمات الشرعية، ويعني ذلك بأن المسألة هذه تأتي في كونها من أشد الكبائر، لاسيما إذا لاحظنا أن الصدق وصلة الرحم وحفظ حرمة الجار واحترام ممتلكات وخصوصيات الآخرين وغير ذلك من الواجبات الاجتماعية هي جزء من منظومة حفظ النظام العام، وأن كبائر من قبيل الكذب والغيبة والنميمة وقطيعة الرحم والتعدي على ممتلكات الآخرين وأكل المال الحرام بالسرقة والغش وغيرها إنما هي جزء من خرق ذلك النظام، وأن حرمتها تنطلق في الأساس من لزوم حفظ النظام العام على المستوى الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.. إن أي مجتمع لا يعيش قدسية النظام العام والمصالح العامة، بل تغلب عليه الشخصية والنزعة الفردية سيخط لنفسه طريقاً حتماً نحو الفشل والانحيار.





لئلا يفسد ابن اللبون

﴿وَمَنْ آتَاكَ مِنَ التَّائِبِينَ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٣١﴾﴾

«البقرة».. صورة معبرة عن نموذج من الناس، يكاد لا يخلو منه زمان ولا مكان.. النموذج المنافق الذي يستغل طيبة الناس وصدقهم، فيصوّر نفسه في صورة الإنسان الطيب الصادق، الذي يحمل في قلبه كلّ النوايا الخالصة والأفكار الخيرة التي تبني للناس حياتهم نحو الأفضل، في قضاياهم

السياسية والاجتماعية والاقتصادية والروحية، كل ذلك من أجل أن يستسلموا لكلماته الحلوة، وأساليبه الماكرة، ومواتيقه المؤكدة.

أمّا حقيقته فهو إنسان شديد الجدل والعداوة للحق وللعدل، ولن يتعرف الناس عليه إلا من خلال التجربة المرة. وعندما تسنح له الفرصة، أو تستقيم له الأمور، ينطلق في الظلام وبقوة ليحقق مآربه الخبيثة التي تفسد واقع الناس السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ليدمر بالتالي الحرث (الموارد الاقتصادية) والنسل (الموارد البشرية).

• تقرير البرنامج الإنمائي:

هذه العلاقة الوثيقة بين الفساد وتدمير الحرث والنسل أكدّه تقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي لعام ٢٠٠٨ معتبراً أن الدلائل تشير إلى: (أن الفساد وضعف التنمية وثيقا الصلة ببعضهما البعض، ويعزز كل منهما الآخر).

وعن العلاقة العكسية بين الفساد والنمو الاقتصادي يقول: (يعيق الفسادُ النمو الاقتصادي بطرق شتى: فهو يضعف الاستثمار الأجنبي والمحلي عن طريق زيادة فرص السعي للحصول على مزايا اقتصادية دون مراعاة مصلحة

المجتمع.. ويقلل الفساد من جودة البنية الأساسية العامة عن طريق تحويل الموارد العامة إلى استخدامات خاصة). وعن العلاقة بين الفساد وحقوق الإنسان يقول: (عندما تفشل حكومة إحدى البلدان في قمع أو احتواء الفساد فإنها تخفق أيضاً في تنفيذ التزاماتها بتعزيز وحماية حقوق الإنسان لمواطنيها.. ويؤدي انتشار الفساد إلى التمييز في الحصول على الخدمات العامة لصالح أولئك الذين بمقدورهم التأثير على السلطات لتحقيق مصالحهم الشخصية).

ويتحدث أيضاً عن علاقة الفساد بنشوب النزاعات، يقول: (لا يساهم الفساد بالضرورة في حدوث النزاعات المسلحة، ولكن بمقدوره أن يؤدي إلى نزاعات عنيفة ويعزز اشتعالها).

ألف مليار دولار تُدفع سنوياً -وفق هذا التقرير- كرشى من أجل تمرير المعاملات وغير ذلك، وكلها أموال تتجه في الاتجاه الخاطئ ولا تصب في المصلحة العامة، بل لجيوب خاصة يعود ضررها بالنتيجة على المجتمع. ما قدّمه التقرير يمثل جزء مما عبرت عنه الآية القرآنية بعنوان ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾.

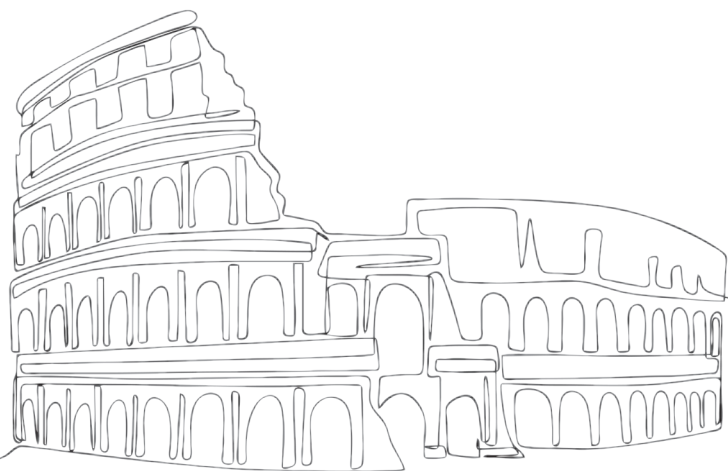
تقرير منظمة الشفافية العالمية الصادر في عام ٢٠١١م يفيد بأن ٧٥ ٪ من الدول تصنّف باعتبارها شديدة الفساد. عدد الدول العربية ٢٢، وقد جاءت الكويت في المرتبة الثامنة بينها (كلّما كبر الرقم كان مؤشراً سلبياً).

وعلى المستوى العالمي تقع الكويت في المرتبة السادسة والسّتين وهذا لا يعني بالضرورة أن الدول العربية التي في ترتيب أفضل هي فعلاً كذلك، لأنّ بعضاً منها تشهد حالة أمنية وقمع للحريات يصعب معها الحديث عن الفساد وفتح ملفاته، بينما مساحة الحرية في التعبير والحق الرقابي الذي كفله الدستور الكويتي للمواطن يضعها تحت الضوء، وهو مظهر من مظاهر العافية السياسية عندنا، ووسيلة من وسائل الحد من استئثار الفساد، يجب الحفاظ عليه، ولعله من أسباب تراجع مؤشر الفساد في الكويت خلال العام المنصرم من معدل ٣، ٤ إلى ١، ٤.

الفساد فساد، سواء وُجدت حرية في التعبير أم لم توجد.. وما قضية الإيداعات والإضرابات النقابية والطلابية والتجمعات الاحتجاجية إلا صور أو انعكاسات لذلك. ولكن المشكلة أعقد من مجرد ملفات فساد تُفتح بين حين وآخر:

١. فبعض من يفتح ملفات الفساد يستهدف إبعاد الأضواء عنه لأنه يمارس الفساد أيضاً، فيريد أن يُشغل الساحة عنه.
٢. وبعض من يفتح هذه الملفات لديه إحاطة مسبقة بها، ولكنه يحتفظ بها للتكسب السياسي في الوقت الذي يراه مناسباً، أو لتصفية حسابات مع هذا الطرف أو ذاك، أو لتحقيق أجندات معينة، وهذا في حد ذاته صورة من صور الفساد، وهو ما يعقد المشهد بشكل أكبر.

نحتاج إلى كثير من الحذر في التعامل مع ما يثار حول قضايا الفساد، لئلا نكون أداة بيد المتصارعين في حلبة الفساد، وبتعبير أمير المؤمنين «عليه السلام»: (كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ) أي ابن الناقة إذا استكمل سنتين (لَا ظَهْرٌ فَيُرْكَبُ، وَلَا ضَرْعٌ فَيُحْلَبُ) «نهج البلاغة، ح ١». فالمهم أن نضع مصلحة الكويت فوق أي اعتبار شخصي أو فئوي، وإلا سنكون شركاء في هذا الوضع السيئ الذي يجرون البلد إليه. والمطلوب أن تتضافر جهود المخلصين من أجل إعادة الهيبة للقانون وحرمة المال العام، والتوصيف الواضح لجرائم الفساد وعقوباتها، لئلا تبقى الأمور هلامية يجرّها كل لمصلحته تكسباً وإمعاناً في الفساد.





الفساد وآجال الأمم

من المعلوم أن لكل فرد أجل، حيث يعيش في هذه الحياة الدنيا لمدة محددة (أجل مسمى) ثم يأتيه الموت لا محالة: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ «الزمر»، ولا أحد مستثنى من ذلك، ولو كان لأحد أن يُستثنى لكان رسول الله «صلى الله عليه وآله»: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنَّ مَتَّ فَهُمْ الْخُلْدُونَ ﴿٣١﴾﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ «الأنبياء».

وقد ذكر القرآن الكريم أن للوجود المادي أيضاً أجلاً مسمى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ٣﴾ «الأحقاف»، ثم تتبدل السماوات والأرض ويعاد تشكيلها وفق المشيئة الإلهية: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ٤٨﴾ «إبراهيم».

ولكن الملاحظ أن في القرآن الكريم حديث عن قسم ثالث من الآجال، وهو خاصٌّ بالأمم، أي للوجود المجموعي للناس، لا للأفراد: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ٣١﴾ «الأعراف»، ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ٤٩﴾ «يونس»، أي أن لكل أمة حياة، وحركة، وموت... فكما أن الفرد يتحرك فيكون حياً ثم يموت، كذلك فإن الأمة تكون لها حركة لأنها حية، ثم تموت!

وكما أن أجل الإنسان مضبوط ومحدد، فهو أجل (مسمى).. فكذلك أجل الأمة، مضبوط ومحدد (مسمى)، لأن الكل خاضع لقانون إلهي (سنة إلهية).

• نظرية ابن خلدون:

الأجل المسمّى للأمم ليس بالضرورة أن يكون دائماً بصورة الفناء من الوجود، بل قد يكون بضعفها وأقول نجمها، أو تفكّكها، أو تحوّلها إلى تابعة بعد أن كانت متبوعة... إلخ.

وقد تحدّث ابن خلدون في الفصل الرابع عشر من مقدمته عن أعمار الدول، تحت عنوان: (في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص) معتبراً أن لكل دولة أجلاً مسمّى لا يخرج -عادة- عن حد ثلاثة أجيال: (اعلم أنّ العمر الطبيعيّ للأشخاص على ما زعم الأطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة.. ولا يزيد على العمر الطبيعي الذي هو مائة وعشرون إلا في الصّور النّادرة.. الدّولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال، والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون أربعين الذي هو انتهاء النّموّ والنّشوء إلى غايته. قال «تعالى»: ﴿.. حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ﴿١٥﴾ «الأحقاف».. ويؤيّد ما ذكرناه في حكمة التّيه الذي وقع في بني إسرائيل، وأنّ المقصود بالأربعين فيه فناء الجيل الأحياء ونشأة جيل آخر لم يعهدوا الدّلّ ولا عرفوه) «مقدمة ابن خلدون، ج ١، ص ١٧٠».

ثم بيّن سبب التحديد بالأجيال الثلاثة، حيث اعتبر أنّ:
 ١. الجيل الأوّل لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحّشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد.. فحدّهم مرهف، وجانبهم مرهوب، والنّاس لهم مغلوبون.

٢. الجيل الثّاني تحوّل حالهم بالملك والترّف من البداوة إلى الحضارة، ومن الشّظف إلى التّرف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وكسل الباقيين عن السّعي فيه، ومن عزّ الاستطالة إلى ذلّ الاستكانة.. (إلا أنّ ارتباطهم القريب بالجيل الأوّل لا يسمح لهم بالتخلي عن روح الإنجاز تماماً) ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأوّل أو على ظنّ من وجودها فيهم.

٣. الجيل الثّالث ينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العزّ والعصبية.. ويبلغ فيهم التّرف غايته.. فيصирون عيالاً على الدّولة.. فيحتاج صاحب الدّولة حينئذٍ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النّجدة، ويستكثر بالموالي، ويصطنع من يغني عن الدّولة بعض الغناء، حتّى يتأذّن الله بانقراضها «مقدمة ابن خلدون، ج ١، ص ١٧٠-١٧١».

وإذ اعتبر بعض الناقدين أنّ ابن خلدون قد أخطأ في تعميم هذه القراءة على الدول المختلفة من خلال تحديدها بالأجيال الثلاثة، إلا أنه لم يبتعد كثيراً عن الواقع في تقديم قراءته عن مرور الدول (الأمم) في مراحل سنّية كتلك التي يعيشها الإنسان حيث يقول «تعالى»: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ ﴿٥١﴾ «الروم».

ولربما يقال أنه لم يُرد بتحليله أوضاع (الأمة) وتبدلات أحوالها، وذلك كالأمة الإسلامية مثلاً، بل أراد ما هو أخص من ذلك، كدولة بني أمية، وكدولة بني بويه، وكدولة السلاجقة.. كل ذلك داخل إطار الأمة الإسلامية.. أو أنه لم يعمّم ولم يُطلق، بل ذكر وجود استثناءات في البين.

• لماذا العقوبة الجماعية؟

وقد يتساءل البعض: إذا كان أجل الإنسان المسمّى حالة طبيعية مفهومة، إلا أنّ الأجل المسمّى للأمم هو نوع من المصير الجماعي غير المفهوم، إذ يتبادر السؤال التالي المرتبط بالعدالة الإلهية. ففي الأمم عموماً صالحون وفاسدون، ومحسنون ومسيئون، ومكلفون وغير مكلفين،

وجيل غير مسئول عمّا قدّمه الجيل السابق، فإذا جاء الأجل المسمّى للأمة، ليكون بمثابة النهاية لها، على مستوى الإهلاك الجماعي بنزول العذاب، أو بالتدمير الذاتي من خلال التآكل والاهتراء الداخلي بانتشار الفساد الإداري والسياسي والقضائي مثلاً، أو بالغزو والاحتلال الخارجي المدمر.. فما ذنب الصالح والمحسن وغير المكلف والجيل اللاحق أن يلاقي مصيراً واحداً شأنهم شأن الفاسد والمسئ والمكلف وبقايا الجيل السابق؟

والجواب أنّ هذا الإشكال يصحّ لو كنّا نتكلم عن نوع من العقوبة الأخروية الناتجة عن الحساب الفردي حيث لا يجوز أن يؤخذ أحد بجريرة آخر، إذ لا تزر وازرة وزر أخرى في الميزان الإلهي، ولكن هذا الأجل المسمّى للأمم ليس من هذا القبيل، بل هو نتيجة تحقّق مقدمات السنّة والقانون والمعادلة الإلهية التاريخية.. لذا تتحقّق النتيجة ضمن هذه المعادلة (السنّة).

فهذا الأجل المسمّى قد يكون مماثلاً لهلاك الجميع عندما يثور البركان فيغطّي مدينة ما، أو مماثلاً لموت أهل قرية على إثر زلزال مدمر، لا يفرّق بين الصالح والفساد،

والمحسن والمسيء، أو مماثلاً لولادة طفل معاق نتيجة تناول والدته علاجاً دوائياً مضرّاً بالجنين، فالنتيجة تحققت وفق معادلة طبيعية ولا علاقة لها بالعقاب، أو مماثلاً لإنزال العقوبة الدنيوية على الظالمين، ولكنها تصيب غير الظالمين أيضاً. إذ ليس بالضرورة -في العقوبة الدنيوية- أن تكون فردية وانتقائية.

ويمكن أن نفهم هذه الصورة بشكل أوضح من خلال استعراض جانب من قصة النبي موسى «عليه السلام»: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ ٥٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ٥٦﴾ «المائدة»، فقد أراد موسى «عليه السلام» أن يكون وضعه -ووضع أخيه- متميزاً عن بني إسرائيل المتمردّين الظالمين، ولكن عندما جاءت العقوبة الإلهية الدنيوية الجماعية شملتتهما أيضاً ! هي لم تكن عقوبة لهما، ولكن أحياناً تكون طبيعة العواقب الدنيوية شاملة للجميع، بمن فيهم أظهر الناس في ذلك الزمان.

ولذا نجد أن الله «سبحانه وتعالى» يأمر المؤمنين بالخروج مع النبي ضمن أجواء معركة بدر الكبرى، وجاء في خطابه

لهم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَىٰ تَحْشُرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ «الأنفال».. فماذا لو تمرّدت مجموعة كبيرة من المؤمنين فلم يستجيبوا لهذا الأمر الإلهي؟ تقول الآية اللاحقة: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ أي أن النتيجة المتمثلة في (الفتنة) التي سيبتلون بها ستشمل حتى القلة الذين استجابوا للأمر، لا لأنها عقوبة لهذه الفئة المستجيبة، بل لأنها النتيجة الطبيعية لتراتبية الأحداث وسياقاتها.. وهكذا شملت العقوبة الدنيوية الجماعية موسى وهارون «عليهما السلام» لأنهما كانا جزءاً من تلك الأمة.

• الفساد والأجل المحتوم:

ومع الإيمان بهذه السنّة الإلهية التاريخية، ومحتوميّة مواجهة الأجل المسمّى (الموت)، وأن لا مفرّ من ذلك، كما لا مفرّ للأفراد من الموت والأجل المسمّى، سواء أكانت هذه الأمّة منطلقة من أساس ديني صحيح، أو من أساس آخر باطل، ديني أو غير ديني، يأتي السؤال: هل تستسلم الأمم للقدر المحتوم فتكون كالريشة في مهب الريح؟

عندما نقارن بين الامتداد التاريخي والتأثير الحضاري للأمم عبر آلاف السنين، سنجد أنها بهذين اللحاظين متفاوتة. فمدة بقاء بعض الأمم قوية ومؤثرة وفاعلة حضارياً امتدت لقرون، بينما لم تستطع بعض الأمم أن تبقى مؤثرة لقرن واحد! أي أن عهد الشباب الخاص بكل أمة متفاوت، تماماً كما هو حال الأفراد... فهناك من يختار أن يتعاطى المخدرات فيهلك وهو في مقتبل عمر الشباب... وهناك من يستهتر في قيادة مركبته فيموت وهو في الثلاثين... وهناك من لا يراعي صحته، فيعيش الشيخوخة وهو في الأربعين... وهناك من يمارس الرياضة ويراقب طعامه ويتصرف بحكمة في حياته، فتتمد به حيويته وشبابه وقد بلغ الستين! كلُّهم لهم أجل مسمّى، ولكن يمكن للفرد أن يساهم في إطالة مدة حيويته وشبابه وفاعليته وعطائه.. وهكذا هو حال الأمم أيضاً، إذ بإمكانها أن تطيل فترة عطائها الحضاري، أو بقاءها قوية فاعلة نشطة وحاضرة في الساحة بقوة.

إلا أن ذلك يحتاج إلى توفير عدة عناصر، ومقاومة عدة عوامل سلبية، تطرّق ابن خلدون في مقدمته إلى عناوين مهمة منها، ومن بينها:

١. المحافظة على المشاركة في صنع القرار، وعدم التفرد في ذلك.

٢. تجنب نسبة المجد المتحقق للدولة إلى الفرد الحاكم، بل إلى مجموع من صنعه.

٣. الابتعاد عن الترف والدعة والخمول والراحة.

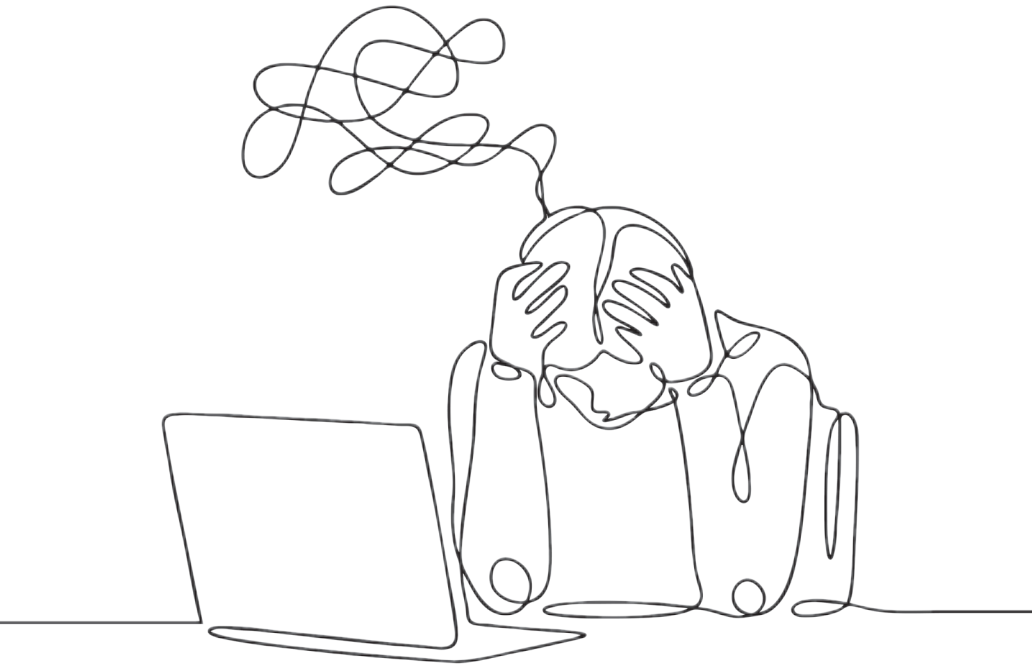
٤. الاستمرار في الاعتماد على (أبناء الدولة) في نهوضها.

ويمكن أن نضيف عاملاً آخر علاوة على ما ذكره ابن خلدون، ويتمثل في ضرورة محاربة الفساد والإفساد وعدم التراخي في ذلك، فالماء إذا ركد فُسِد، وهكذا هو حال الأمم المختلفة إذا استقرت أوضاعها وعاشت الترف والراحة، وآثرت الاستمتاع بما لديها على الاستمرار في العمل والتحدي: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٥٦﴾ «الأنفال».. ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿١١﴾ «الروم».

• الإنسان يصنع أوضاعه:

وهذا يعني أن التغير الفكري والسلوك المنحرف والفساد

المتنوع يجعل الإنسان نفسه هو صانع التغيير في الجانب السلبي، فكون ذلك من السنّة التاريخية التي أودعها الله في الواقع الإنساني الاجتماعي لا يعني خلوّ وارتفاع مسؤولية الأمة عن التغيّر السلبي الحادث، لأنه تغيّر متحقق من موقع إرادة الإنسان نفسه واختياره، لا من موقع الحتمية التاريخية الخارجة عن قدرة الإنسان الحركية، فالاختيار الإنساني جزء من السنّة وليس نتيجة لها، فإذا أحسن الاختيار كان للأمة شبابها وحيويتها وامتدادها في العمر الحضاري، وإذا أساء ذلك، كان سبباً للمرض الروحي والمعنوي والمادي الذي يعجّل في الموت ويبلغ بها نهاية الأجل، فيكون ذلك مصير الأمة بكل مكوّناتها، وشاملاً في تأثيره السلبي الصالحين والفاستدين، والمحسنين والمسيئين.





الفساد وإحباط الشباب

في القرآن الكريم حديث بالجانب السلبي عن الأمل، قال «تعالى»: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝﴾ «الحجر».

فهل الأمل أمرٌ سلبي؟ وهل التعاليم الإسلامية ضدّ أن يعيش الإنسان الأمل في نفسه؟

التأمّل في الآية يرشدنا أنها بصدد نقد الكافرين بلحاظ أنّ لا غاية لهم في الحياة إلا التمتع بملذّات الدنيا المادية، والتلهي بالآمال والأمانى الدنيويّة فحسب، وكنتيجة طبيعيّة للتلعّق بهذه الحياة إلى أقصى حدّ، وهو ما عبّر عنه في بعض

الأحاديث بعنوان (طول الأمل)، ولا يخفى أن هذا الأمر مرفوض في التعاليم الإسلامية.

أما عندما يكون الأمل في هذه الحياة متوازناً مع متطلبات البُعد العقلي والروحي عند الإنسان، وكذلك ما تتطلبه الحياة الآخرة من إعداد واستعداد، فإنه يكون حالة إيجابية، بل ومطلوبة، ومن الفطرة السليمة، وقد روي عن النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» قوله: (الأمل رحمة لأمتي، ولولا الأمل ما رضعت والدّة ولدها، ولا غرس غارس شجرة) «بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٧٣»، وفي نفس المصدر عن الإمام الحسن «عليه السلام»: (واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) «ج ٤٤، ص ١٣٩».

فوجود الأمل عند الإنسان تستمر الحياة، وتعمُر الأرض، وتتقدّم البشرية، وتبني حضارات، ويتحقق الإبداع، وتستمر التنمية... وأما الإنسان الذي لا أمل له فإنساناً شبه ميّت، لا يُتوقع منه الكثير.

وكما أنّ المصاب بالاكْتئاب المرضي، أو بمتلازمة انعدام الحافز -وهما حالتان مرضيتان- يفقد الدافع والقوة والإرادة للعطاء والفاعلية والإنتاجية والتفاعل الاجتماعي،

كذلك يكون حال الإنسان فاقد الأمل بسبب تراكم الإحباط عنده نتيجة تراكم التجارب السلبية في مجال واحد، أو عدّة مجالات، فتضعف روحيته الإنتاجية، ويقل تفاعله الإيجابي، وت تلاشى إبداعاته... وإذا كان ضحيّة الإحباط في أي مجتمع هم الشباب، فإن النتيجة ستكون كارثية على ذلك المجتمع، فعندما يأتي الإحباط، فإنّ كل ما يلي محتمل:

١. التطرف الفكري والسلوكي، باللجوء إلى الإيديولوجيات المتطرّفة -دينية كانت أو غير دينية- وتبنّيها.. أو اللجوء إلى السلوكيات الغرائزية المتطرّفة كتعبير عن التمرد على الواقع الذي يعيشه.

٢. العدوانية، نتيجة الشعور بالغضب على المجتمع وأوضاعه، وقد شهدنا عند الشباب -خلال الأشهر الماضية- حالات متكرّرة من العدوان على الغير، ولأنّفه الأسباب، وقد يكون الإحباط إحدى العوامل المسبّبة لذلك.

٣. الإدمان على الكحوليات أو المخدّرات، كوسيلة لنسيان الواقع المؤلم، والانتقال إلى عالم الأحلام والآمال الزائفة.

٤. الانغماس في الأنشطة غير المثمرة أو حتى المضرة

بدلاً من العمل على تحقيق الغايات في هذه الحياة، والإعداد للحياة الآخرة. ومن أمثلة ذلك: الإقبال المُفْرِط على ألعاب الفيديو، والتسكّع في المجمّعات التجاريّة، والمنتزّهات، والكافيهات، وما إلى ذلك.

٥. الركون إلى الكسل والإهمال وكثرة النوم والتواكل على الغير وقلة الإنتاجية.

وما سبق بيّين الطبيعة الكارثية لآثار وتبعات الإحباط عند الشباب فيما لو ساد في أيّ مجتمع.

ولستُ أملكُ أرقاماً تبين نسبة تفشّي الإحباط لدى الشباب في الكويت، ولكنّها نسبة ملحوظة، وكثيرٌ من عوامل هذه الحالة -محلياً- غير خافية، ولكن من اللافت أنّه في سنة ١٩٩٩م قامت إدارة البحوث والدراسات في مجلس الأمة الكويتي بدراسةٍ حول مشكلات الشباب الكويتي، وجاء فيها أن المشكلة الأولى من مجموع المشكلات الاجتماعية التي يشعر الشباب بالقلق تجاهها هي (انتشار الواسطة)! وأعقب ذلك في الترتيب، الانتظار الطويل للحصول على الرعاية السكنية، ثم ارتفاع حوادث السيارات، وغيرهما من

العناوين.. وهذا يعني -وبوضوح- أن نحواً من أنحاء الفساد الإداري والسياسي يأتي على رأس قائمة مسببات القلق لدى الشباب، وهو ما قد يستتبع التثبيط والإحباط.

وهذا يعني -أيضاً- أن الجهات الرسمية، ممثلة في الحكومة ومؤسساتها، مسئولة بشكل مباشر عن معاناة الشباب من الإحباط، دون أن يُعفي ذلك الأسرة والمؤسسات الدينية والإعلامية وغيرها من المساهمة في ذلك.

● مسئولية الأسرة:

فالأسرة مسئولة عن تقديم نموذج من الشباب المترَف المدلل الذي لم يعيش معاناة الحصول على ما يريد، ولم يواجه التحديات الحقيقية في حياته، والنتيجة الطبيعية لذلك: سرعة الإحباط عند الشاب عند مواجهة الفشل، أو بعض الظروف غير المواتية.

وقد روي عن الإمام محمد الباقر «عليه السلام» أنه قال في بيان الدور السلبي للآباء في إطار العملية التربوية: (شرّ الآباء من دعاه البرّ إلى الإفراط) «أنساب الأشراف، ج ٤، ص ٨٤»، والمراد من الإفراط هنا خصوص المبالغة في

الحب، والمبالغة في تلبية كل طلبات الأبناء، والمبالغة في الدلال.. وكل ذلك قابل إلى أن يؤدي إلى إفساد هذا العنصر البشري على أكثر من صعيد، ومن ذلك ضعف الشخصية، وقلة التحمل في مواجهة التحديات، ومن ثم سرعة الإحباط.

وهكذا فإن من شأن التلقين، وتكرار ذكر السلبيات وتضخيمها، أن يعمل على ترسيخ الإحباط، فقد لا تكون الأوضاع بذلك السوء، إلا أن تكرار الأب -مثلاً- لحالة الإحباط التي يعيشها أمام أبنائه، قد يدفعهم لأن يعيشوا هذا الهاجس قبل الابتلاء بمسبباته.. والنتيجة أنه بمجرد مواجهتهم لأية سلبية، فإن الصورة النمطية التي رُسمت في مخيلتهم ستتداعى تلقائياً، مما قد يؤدي إلى تضخيم ما يواجهونه، ومن ثم الشعور بالإحباط.. وقد تعمل وسائل الإعلام على خلق مثل ذلك الشعور السلبي.

● فساد الشخصيات والمؤسسات:

وهكذا، يفرض الإحباط نفسه على الشباب عند وقوع الصدمة نتيجة انكشاف فساد بعض الأفراد المفترض نزاهتهم، كعلماء الدين، أو المتدينين، أو لتفشي الفساد

في بعض المؤسسات التي تُعقد عليها الآمال في الإصلاح، ومحاسبة المفسدين، كالجهاز الرقابية والقضائية والأمنية في الدولة، ومن قبيل الأحزاب الإسلامية، وغيرها.

كما أنّ أضرار عدم التزام المرشحين -لأية عملية انتخابية- بالوعد التي يُطلقونها ضمن حملاتهم الدعائية، أو بوقوعهم في فخ الفساد والارتشاء لاحقاً، لا تقف عند حدّ تشويه صورتهم الشخصية كأفراد، بل تتعدى ذلك لتضيف مفردة جديدة من مسببات الإحباط وتدمير آمال شباب الوطن، وما يستتبع ذلك من آثار سلبية على أكثر من صعيد.

وخلاصة القول، إنّ الحديث عن الإحباط، وبالتالي عن فقدان الأمل في هذه الحياة، حديثٌ عن مستقبل وطن، لأنّ الأوطان تُبنى بسواعد أبنائها، فإذا تعاضدت الأسرة والمؤسسات الإعلامية والدينية والسياسية والرسمية على ترسيخ حالة الإحباط في نفوس الشباب، وقتل الأمل لديهم، كلُّ بحسبه، فإنّ هذا يعني تعاضد هذه الأطراف على إدخال الوطن في نفقٍ مظلم، لا يُعرف آخره، ولا يُدرى إلى أيّ مستقبل يقود.



معاينة المُفسدين



من أهم وسائل اقتلاع الفساد: معاينة المفسدين دون مبالاة وتأخير، لاسيما رؤوس الفساد، وأشدّهم تأثيراً في هذا الإطار، وذلك بهدف منع حركة الفساد من أن تتوسّع وتمتدّ من خلالها، أو لمنع معاودة رؤوس الفساد تنظيم صفوفها بعد إقصائها.

وقد سئل الإمام علي «عليه السلام» عن فساد المجتمع فبيّن أنه ينشأ من فساد عدّة طبقات، الطبقة المسؤولة عن الجانب التشريعي والقضائي، وكانت في عهده هي طبقة حملة العلم (العلماء)، وتلك المسؤولة عن الجانب الوعظي

والمتمثلة في المُعرضين عن الدنيا والماديات بشكل كبير (الزُّهَّاد)، والمسئولة عن الجانب الاقتصادي من أصحاب الثروات الطائلة وتتمثل غالباً في (التُّجَّار)، والجانب الأمني المتمثل في المقاتلين في سبيل الله ويُطلق عليهم عنوان (الغزاة)، والجانب السياسي والإداري وهو ما عبّر عنهم بـ (الحكَّام)، ولذا فهم لا يستوون مع غيرهم في تحمُّل التبعات، وذلك بلحاظ قوة التأثير، ولذا فالوزر عليهم أكبر، وإنزال العقوبة بهم بشكل صارم ومحكم وسريع أوقع في سير عجلة الإصلاح، وتجفيف منابع الإفساد.

والرواية كالتالي: (قال «عليه السلام» لَمَّا سئل عن أحوال العامة: إِنَّمَا هِيَ مِنْ فَسَادِ الْخَاصَّةِ، وَأِنَّمَا الْخَاصَّةُ لِيَقْسَمُونَ عَلَى خَمْسٍ: الْعُلَمَاءُ وَهُمْ الْأَدْلَاءُ عَلَى اللَّهِ، وَالزُّهَّادُ وَهُمْ الطَّرِيقُ إِلَى اللَّهِ، وَالتُّجَّارُ وَهُمْ أَمْنَاءُ اللَّهِ، وَالْغَزَاةُ وَهُمْ أَنْصَارُ دِينِ اللَّهِ، وَالْحَكَّامُ وَهُمْ رِعَاةُ خَلْقِ اللَّهِ. فَإِذَا كَانَ الْعَالَمُ طَمَعًا، وَلِلْمَالِ جَمَاعًا فَبِمَنْ يَسْتَدِلُّ، وَإِذَا كَانَ الزَّاهِدُ رَاغِبًا، وَلِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ طَالِبًا فَبِمَنْ يُقْتَدَى، وَإِذَا كَانَ التَّاجِرُ خَائِفًا، وَلِلزُّكُوةِ مَانِعًا فَبِمَنْ يَسْتَوْتِقُّ، وَإِذَا كَانَ الْغَازِي مَرَأِيًا، وَلِلْكَسْبِ نَاضِرًا فَبِمَنْ يَذُبُّ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِذَا كَانَ

الْحَاكِمُ ظَالِمًا، وَفِي الْأَحْكَامِ جَائِرًا، فَبِمَنْ يُنْصَرُ الْمَظْلُومُ عَلَى الظَّالِمِ. فَوَ اللَّهُ مَا أَتَلَفَ النَّاسُ إِلَّا الْعُلَمَاءُ الطَّمَّاعُونَ، وَالزُّهَادُ الرَّاغِبُونَ، وَالتُّجَّارُ الْخَائِنُونَ، وَالْفُزَاةُ الْمُرَاتُونَ، وَالْحُكَّامُ الْجَائِرُونَ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَى مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) «غرر الحكم: الحكمة ٥٤٢».

• عقوبة صارمة:

بل حتى نوعية العقوبة تحمل صورة عنيفة جداً مقارنة بسائر العقوبات المقررة في القرآن الكريم، فنجد أن عقوبة السعي للإفساد في الأرض من قبل الذين يحاربون الله ورسوله بهذه الصورة العنيفة: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ «المائدة».

ونلاحظ الواقع فيما شهدناه من ثورات أو تبدلات على الساحة السياسية في المنطقة خلال السنوات الثلاث الماضية، كيف أن الأمور تتعقد أمام الراغبين في إحداث التغيير إلى الأفضل، وإجراء حزمة الإصلاحات التي بشروا بها، وذلك عندما لم يحسموا أمر محاكمة رؤوس الفساد

ومعاقبتهم، وحولوها إلى ورقة للمساومة تارة، أو أرادوا بها إرسال رسائل طمأنة إلى المجتمع الدولي حول حضارية التعامل مع أركان الفساد تارة أخرى، أو لأي سبب آخر.

فما دامت تلك الرؤوس باقية، فإن أمل أتباعهم والمستفيدين من فئات موائدهم سيبقى حياً، وسيعملون على تنظيم صفوفهم للقيام بما يُعرف بالثورة المضادة، أو للعبث الأمني، أو للتغلغل في أوصال الدولة الجديدة وإعادة الفساد بعناوين ووجوه جديدة.

• تحذير وإجراءات صارمة:

وقد حذر الإمام علي «عليه السلام» من إحاطة مستشاري ومعاوني الحكم الفاسد بالحاكم الجديد وعدم إقصائهم، ففي كتابه إلى مالك الأشر لما ولاه مصر: (شَرُّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيْرًا، وَمَنْ شَرَكَهُمْ فِي الْإِثَامِ، فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بَطَانَةً فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْإِثْمَةِ، وَإِخْوَانُ الظُّلْمَةِ، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَادِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ أَصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وَإِثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوَنْ ظَالِمًا عَلَى ظُلْمِهِ، وَلَا أَثِمًا عَلَى إِثْمِهِ، أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَوْؤَنَةً، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفًا، وَأَقْلُ لِمُغْيَرِكَ إِفْثًا، فَاتَّخِذْ

أُولَئِكَ خَاصَّةً لِّخَلَوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ، ثُمَّ لِيَكُنْ أَثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقُولُهُمْ بِمِرِّ الْحَقِّ لَكَ، وَأَقْلَهُمْ مَسَاعِدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ لَأَوْلِيَائِهِ، وَأَقِمْ ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ) «نهج البلاغة: الكتاب ٥٣».

كما بيّن «عليه السلام» ضرورة عدم المداهنة في هذا الأمر في كلمة قالها عقب البيعة له بالحكم سنة ٣٥ هـ، وفيها: (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ لِي مَا لَكُمْ وَعَلَيَّ مَا عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي حَامِلُكُمْ عَلَى مَنَهِجِ نَبِيِّكُمْ وَمُنْفِذُ فَيْكُم مَّا أُمِرْتُ بِهِ، أَلَا إِنَّ كُلَّ قَطِيعَةٍ أَقْطَعَهَا عُثْمَانُ، وَكُلُّ مَالٍ أَعْطَاهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ، فَهُوَ مَرْدُودٌ فِي بَيْتِ الْمَالِ، فَإِنَّ الْحَقَّ لَا يَبْطُلُهُ شَيْءٌ وَلَوْ وَجَدْتَهُ قَدْ تَزَوَّجَ بِهِ النِّسَاءَ وَمَلَكَ الْإِمَاءَ وَفَرَّقَ فِي الْبُلْدَانِ لَرَدَدْتَهُ، فَإِنَّ الْعَدْلَ سَعَةٌ، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْحَقُّ فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ، أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا لَا يَقُولَنَّ رَجَالٌ مِنْكُمْ غَدًا قَدْ غَمَرَتْهُمْ الدُّنْيَا فَاثْمَلَكُوا الْعَقَارَ وَفَجَّرُوا الْأَنْهَارَ وَرَكَبُوا الْخَيْلَ وَاتَّخَذُوا الْوَصَائِفَ الْمُرَقَّعةَ إِذَا مَا مَنَعْتُهُمْ مَا كَانُوا يَخْوَضُونَ فِيهِ وَأَصْرَتُهُمْ إِلَى حُقُوقِهِمُ الَّتِي يَعْلَمُونَ حَرَمَنَا ابْنُ أَبِي طَالِبٍ حُقُوقَنَا. أَلَا وَآيِمًا رَجُلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ «صلى الله عليه وآله» يَرَى أَنَّ الْفَضْلَ لَهُ عَلَى سِوَاهُ

بُصِحَّتْهُ فَإِنَّ الْفَضْلَ غَدَاً عِنْدَ اللَّهِ وَثَوَابُهُ وَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ،
 أَلَا وَآيَمًا رَجُلٌ اسْتَجَابَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ فَصَدَّقَ مِلَّتَنَا وَدَخَلَ دِينَنَا
 وَاسْتَقْبَلَ قِبَلَتَنَا فَقَدْ اسْتَوْجَبَ حُقُوقَ الْإِسْلَامِ وَحُدُودَهُ. فَانْتَمَ
 عِبَادُ اللَّهِ، وَالْمَالُ مَالُ اللَّهِ، يُقَسَّمُ بَيْنَكُمْ بِالسَّوِيَّةِ وَلَا فَضْلَ
 فِيهِ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ وَلِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَحْسَنُ الْجَزَاءِ» (شرح
 نهج البلاغة: ج ٧، ص ٣٨).

وتمرّ الأيام ولا يرتاح البعض لهذه السياسة، وتبدأ
 رؤوس الفساد والمنتفعون من السياسة الطبقية التي ألفوها
 وناسبتهم بالتذمّر من هذا الوضع، وتظهر بوادر حركتهم
 التمردية.. ولعلمهم وسّطوا جماعة لتغيير قناعات علي «عليه
 السلام»، أو أن بعضاً من المخلصين له توجّسوا خوفاً من
 حركتهم، ولذا (دَخَلَ عَلَى عَلِيٍّ بَنُ أَبِي طَالِبٍ «عليه السلام»
 جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَوْمًا فَقَالُوا لَهُ: لَوْ أَعْطَيْتَ هَذِهِ الْأَمْوَالَ،
 وَوَصَلْتَ بِهَا هَؤُلَاءِ الْأَشْرَافَ، وَمَنْ تَخَافُ فِرَاقَهُ، حَتَّى إِذَا
 اسْتَبَبَّ لَكَ مَا تُرِيدُهُ عُدَّتْ إِلَى مَا عَوَّدَكَ اللَّهُ مِنَ الْعَدْلِ فِي
 الرَّعِيَّةِ وَالْقِسْمَةِ بِالسَّوِيَّةِ. فَقَالَ أَنَا مُرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ
 بِالْجَوْرِ فَيَمُنَّ وَلِيَّتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ؟ وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ
 ذَلِكَ. لَوْ كَانَ هَذَا الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ فِيهِ، كَيْفَ وَإِنَّمَا هِيَ

أَمْوَالُهُمْ؟) «موارد الزمان لدروس الزمان: ص ١٣٢».

والمسألة الأخرى أن الإمام «عليه السلام» كان حساساً تجاه أية بوادر لعودة المفسدين إلى الواجهة من جديد، ولذا يسارع في توجيه رسالة قاسية اللهجة لواليه على البصرة الصحابي الجليل عثمان بن حنيف الأنصاري عندما لم يصدر منه أكثر من أن يقبل دعوة أحد شخصياتها على مائدة طعام، ولكن الحالة الرقابية التي فرضها الإمام على الولاية فرضت أن يطّلع على هذا التصرف على الرغم من بعد المسافة، وبدائية وسائل الاتصال حينئذ.. ويأتي ذلك من الإمام «عليه السلام» خوفاً من أن تكون هذه بداية شراء ذمة الوالي، أو خضوعه لأصحاب المصالح من باب أن الناس عبيد الإحسان.

قال الشريف الرضي: (ومن كتاب له «عليه السلام» إلى عثمان بن حنيف الأنصاري وهو عامله على البصرة، وقد بلغه أنه دُعي إلى وليمة قوم من أهلها، فمضى إليهم: أَمَّا بَعْدُ، يَا بَنَ حَنِيفَ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِّنْ فَتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَادَبَّةٍ، فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا، تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ، وَمَا ظَنَنْتَ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ،

عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ. فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضُمُهُ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ، فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظُهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطَيْبِ وُجُوهِهِ فَلَنْ مِنْهُ. أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَامًا، يَقْتَدِي بِهِ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ. أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدْ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطَمَرِيَّةٍ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصِيَّةٍ. أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ» «نهج البلاغة: الكتاب ٤٥».

ألم يكن بمقدوره «عليه السلام» أن يُبلغ الوالي بصورة سرّية بهذا الأمر حفظاً لشخصيته ومكانته؟ حتماً أن الأمر كان ممكناً، ولكن من الواضح أنه توجد إرادة بأن يقدم هذا الأمر علانية لتبقى العبرة حاضرة.

ولو عدنا إلى نهج البلاغة سنجد أنّ المشهد يتكرّر في أكثر من موقع ومع أكثر من مسؤل، كما في رسالته لشريح قاضي الكوفة، ومصقلة بن هُبيرة الشيباني عامله على أردشير خُرّة (قرية من مدينة بوشهر)، وزياد بن أبيه وهو خليفة عامله عبد الله بن العباس على البصرة، والمنذر بن الجارود العبدي وقد خان في بعض ما ولّاه من أعماله، وغير ذلك مما حفل به قسم الكتب والرسائل من نهج البلاغة.

إِنَّ مَنْ يقرأ تلك الرسائل، والخطب العديدة التي تضمنت ذم الدنيا، والتخويف من الركون إليها، والحث على الزهد، وتذكر الموت والحساب والعقاب والثواب، يُدرك حجم المشكلة الإيمانية والروحية التي كان يعاني منها المجتمع حينذاك، المجتمع الذي حذرّه الإمام «عليه السلام» في بدء لجوئهم إليه كي يستلم مقاليد الحكم بأنهم لن يكونوا قادرين على تحمل سياساته العادلة، لأنّ الفساد قد نخر إلى العظم، فانقلبت الموازين، وضاعت القيم، وصارت الدنيا في عناوينها المختلفة من حكم وجاه ومال ونفوذ هي غايتهم، متناسين مبادئ دينهم ومصيرهم في آخرتهم.. ولذا قال: (دَعُونِي وَالتَّمَسُّوا غَيْرِي فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وَجْهُ وَالْوَأْنُ لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ وَإِنَّ الْأَفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَعَلِمُوا أَنِّي إِنِ أَجَبْتُكُمْ رَكَبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ وَلَمْ أَصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتَبِ الْعَاتِبِ وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَإِنَّا كَأَحَدِكُمْ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطُوعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ وَأَنَا لَكُمْ وَزِيرًا خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيرًا) «نهج البلاغة: الخطبة ٩٢».



مسئولية الإصلاح



قال «تعالى»: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ «هود».

جعل الله «تعالى» من واجبات الصالحين في كل أمة النهي عن الفساد، وبالتالي فانتشار الفساد في أمة يدل على تقصير صالحيها في حق مجتمعاتهم.

فالأية تقرّر بأنه كان المطلوب أن يكون من الأقوام التي

عاشت في القرون السالفة جماعة عبّرت عنهم الآية بقولها: ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ أي جماعة جاءت بعدهم، وأفرادها يتحملون مسؤوليتهم وبالتالي ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ﴾ ولكن لم يحدث ذلك، فقد تبع الخلفُ السلفَ في الطغيان والتمرد في عملية الفساد والإفساد أو السكوت عنه أو الرضا به.

نعم هناك استثناء بسيط: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ من الأنبياء والمؤمنين الذين اتبعوهم في الإيمان بالرسالة وجاهدوا في سبيل الله، وهؤلاء يمثلون القلة في المجتمع الذي سيطر عليه المترفون بكفرهم وضلالهم، ممن ظلموا أنفسهم ومن حولهم من الناس، والحياة التي تحيط بهم.

أما الصورة الغالبة فكانت بحيث استمرّ الفساد ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ إذ كانت وفرة النعم المادية والمعنوية عاملاً للمزيد من الإفساد على الصعيد الإيماني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والشخصي (الشهوات).

وقد كان هذا الإفساد في الأرض والإعراض عن جهود الإصلاح جريمة: ﴿وَكَاُنُوا مُجْرِمِينَ﴾ وهي جريمة بشعة لما يمثّله من اعتداء على الحياة بكل روحيتها وعمقها الإنساني والمادّي وامتدادها الرساليّ نحو الله.

إنَّ إنزال العذاب بالأمم المفسدة - بالنسبة إلى الله - لا يمثّل انتقاماً شخصياً أو نابعاً من انفعال أو من عقدة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، لأن من الخطأ أن تتصور أن الله «تعالى» يتعامل مع عباده في سلوكهم وممارساتهم، كما يتعامل الحاكمون الذين يقسون على رعيّتهم من موقع العقدة الذاتية التي تتلذّذ بعذاب الآخرين وترتاح بظهور الألم في حياتهم، وتشعر بالعظمة أمام مشاريع هلاكهم، ولذا قال «سبحانه»: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْفَرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١٧)، فالله غنيّ عن ذلك كله، لأنه هو الخالق والرازق والمنعم، الذي يملك القوّة كلها، وهو الرحيم بعباده، وهو الحكيم الذي لا يتصرف إلّا وفق الحكمة في الثواب والعقاب فلا يعاقب إلّا على أساس ما يمثله العقاب من مصلحة للإنسان، وسلامة للحياة، وذلك في الحالات التي يستسلم فيها الناس للتمرد والعصيان والطغيان والانحراف، والإفساد لحياة الناس، فإنّ العقاب يمثّل حالة رادعة، ومعاملة للمسئ بما يستحق من عذاب، بينما يمثّل الثواب تكريم المحسن بما يستحق من نعيم، وإلا كان المحسن والمسئ بمنزلة سواء، وليس هذا من العدل في شئ، والله «تعالى» هو العدل.

إن الناس إذا كانوا مصلحين في فكرهم وعملهم، فإنَّ الله «تعالى» لا يمكن أن يعاقبهم لأنهم لم يرتكبوا ذنباً يُعاقَبون عليه، بل عملوا عملاً يثابون عليه، فيكون العقاب في هذه الحال ظلاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ولربما كانت العقوبة في أغلب الأحيان تتمثل في تحقيق الإنسان لمقدمات المعادلات السننية التي أودعها الله في المجتمعات البشرية، فحين يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - مثلاً - فإنه من الطبيعي أن يتقدم المفسدون في مواقعهم وتتعاظم قوتهم، الأمر الذي يجعل لحق الدمار بمجتمعهم على الصعيد الإداري والسياسي والبنية التحتية والعدالة الاجتماعية والقضاء وحقوق الناس أمراً بديهياً تحت وطأة كل مشاريع الإفساد التي لا تجد ما يمنع تضخمها وزيادة قوتها التدميرية. وبالتالي يكون فهمنا للتعبير الوارد في قوله «تعالى»: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْفُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١٧) وفق هذا السياق الطبيعي لتسلسل مجريات الأمور نحو سوء العاقبة العامة لهذا المجتمع.

• مواجهة الإفساد بالقوة:

وفي إطار تحمّل هذه الفئة ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ لمسئوليتها في

مواجهة الفساد والإفساد، قد تصل الأمور إلى حد الاضطرار إلى المواجهة والقتال: ﴿.... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٥﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٦﴾﴾ «الحج»، ولنتوقف قليلاً عند دلالات هذه الآية.

للشعر سنة على طول التاريخ، تقتضي اندفاعهم الفطري لمواجهة الأخطار التي تهدد مصالحهم الخاصة والعامة.

وهذا الاندفاع الفطري ليس بالضرورة أن يكون بصورة القتال، بل بكل الوسائل الفكرية والعملية التي يستخدمها الناس في ساحات الصراع، من قبيل عقد التحالفات، الضاغطة على الطرف المعادي، والحرب الإعلامية، والتحركات الدبلوماسية، وحرب الفيروسات الإلكترونية.. إلخ. والآية لا تتحدث عن اندفاع المؤمنين فقط للدفاع عن دينهم ومقدساتهم، وإن كان هذا من أوضح مصاديق الآية ولا سيما بلحاظ سياقها حيث قال «تعالى»: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٦﴾﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ

يَغَيْرِ حَقِّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴿الحج﴾، بل تشمل صور الصراع بين القوى الكبرى، أو بين بعض الدول الكافرة فيما بينها، ليصب ذلك في مصلحة انشغالهم عن المؤمنين وعن مواجهة الدعوة الإيمانية، كما يقال في الدعاء: (اللهم اشغل الظالمين بالظالمين، وأخرجنا من بينهم سالمين).

لقد كانت إرادة الله «تعالى» تقتضي عدم حصر القوة في قطب واحد في الحياة، ليدفع بعضهم عن بعضهم الآخر، ولذا كانت لدينا إلى فترة قريبة قوتان: الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، دفع كل منهما الآخر عن مواطن للتدمير والإفساد في الأرض لتضارب مصالحهما، ولذا كانت بعض الدول العربية مثلاً تلجأ إلى الاتحاد السوفييتي في مواجهة الدعم الأمريكي للكيان الصهيوني في حروبه.

وعندما نفذت الولايات المتحدة الأمريكية إلى الاتحاد السوفيتي في نقاط ضعفه الاقتصادية والمخابراتية هزمتها، وسقطت دولة عظمى، وبدأ الحديث عن عامل أحادي القطب تفعل به الولايات المتحدة ما شاءت.. ولكن سرعان ما تغيرت الأمور بعوامل عديدة عسكرية وأمنية وسياسية واقتصادية

أظهرت عجز هذه الدولة العظمى عن تنفيذ ما شاءت، وتم دفعها في أكثر من موقع فلم تحقق أجندتها كما أرادت.

ولذا فإن القوى العظمى عندما تتعاضم في بعض المواقع، سيكون إلى جانبها قوى قد تكون أقلَّ عظمةً منها في ميزان الكثرة العددية أو في ميزان النوعية، ولكنها تمنعها من أن تأخذ حريتها في ما تريده من عمليات الفساد والتخريب والهدم، وما إلى ذلك.. وهذا من سنن الله «تعالى». ومن جهة أخرى بما أن أي قوى يختزن في داخله عناصر ضعف، وأي ضعيف يختزن في داخله مواقع قوة، ولذا يلجأ الضعيف لاستخدام هذه وتلك لينتصر على القوي: ﴿كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿٢١٩﴾ «البقرة».

وقد استفاد الفلسطينيون في العدوان الصهيوني على غزة عام ٢٠١٢ م من هذه المعادلة، وسرعان ما تحرك الصهاينة دبلوماسياً من أجل إيقاف الصواريخ التي فاجأهم في تل أبيب.. وهكذا كان الأمر في ٢٠٠٦ م مع المقاومة في لبنان.. فلكل قوى نقاط ضعف.. ولكل ضعيف نقاط قوة.

وكان الآية تقول: أيها الناس، لا تستسلموا لمن يملك القوة، لأن الله لم يمنحه القوة المطلقة، لقد أعطاكم قوة

فلا تهملوها، ولا تغفلوها، بل حاولوا أن تحركوها في مواجهة الضعف الذي عند العدو. إنَّ هذا الإيحاء من الآية لا بد أن نستفيد منه في الحركة السياسية والأمنية وحتى الاقتصادية. ولذلك كان تشريع القتال منسجماً مع هذه السنّة التي فطر الله الطبيعة الإنسانية عليها، فقد أودع في الإنسان الكثير من الحوافز الغرائزية التي تتحفز لمواجهة أي خطر من الآخرين يهدد الذات، بتعطيل أو إرباك أي مرفق من مرافق حياتها، أو بالتأثير على أيّة مصلحة من مصالحها، لتستمر الحياة الاجتماعية للناس في نظام دفاعي ذاتي متوازن.

وإذ كانت هذه الطبيعة الإنسانية قابلة للانحراف، وبالتالي فإنها قد تدفع الإنسان للقتال بغياً وعدواناً، لا للدفاع عن الذات والحق، فقد أكد الله على ضرورة القتال على أساس القيم الإنسانية الروحية التي تحركه في الاتجاه الصحيح، الذي يحمي الإنسان، ويمنعه من البغي والعدوان، ويوظف النصر بما يحقق للبشرية الخير عندما تسير وفق شرع الله، وتلتزم بأوامره وتنتهي عن نواهيه: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ بما يشمل عنوان المعروف والمنكر من

مصاديق كثيرة ترتبط بالحياة كلها، سواء على المستوى الديني أو السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو العلمي أو الثقافي.. وليس على المستوى الفردي فقط.

وذكر خصوص الصوامع والبيع والصلوات والمساجد فيما يُدافع عنه في هذا الصراع لربّما يشير إلى أن الله «تعالى» يؤكد ضمناً على أن ما تعانيه البشرية من كل صور الفساد والظلم والصراعات الباطلة يأتي في المقام الأول بسبب ابتعاد الإنسان عن الله، فتلك الأمكنة العبادية هي المنوط بها هداية الناس عبر التاريخ إلى الله عقيدةً وشريعةً ومسلكاً، وزوالها يعني زوال منابع الهداية عند البشرية، وبالتالي الإمعان في الفساد والظلم والصراع بالباطل، ولذا كان من سنة الله أن يدفع الناس بعضهم ببعض بكل صور الدفع لتبقى مواقع الهداية قائمة حية وفاعلة ومؤثرة.

ولئن صدق البعض في نصر الله، فإن الله ينصره، سواء في المواجهة الميدانية مع قوى الكفر، أو من خلال امتداد تأثير تلك المواجهة مع قوى الكفر على سائر الناس أو عبر الزمن ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ وفي هذا التعبير تأكيد مكرر لتلا يتغلغل إلى قلب الإنسان أي نوع من الشك في ذلك.

وليعلم الإنسان الحقيقة التالية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فلا يستطيع أحد منعه من تحقيق ما يريد، لأنه المهيمن على كل شئ، وقوته هي القوة المطلقة التي لا تقف عند حد، ولا يملك أحد أن يقف أمام إرادته، في ما يحكم به أو يقدره، لأنه العزيز الذي لا يستطيع أحد أن ينتقص من عزته شيئاً.

• الإمام الحسين والإصلاح بالقوة:

ومن هنا كانت حركة الحسين «عليه السلام» في جانب منها صورة من صور الاستجابة لمضمون هذه الآيات القرآنية، في مواجهة كل الفساد الفكري والعملية والروحي وكل الظلم وكل القهر وكل القتل الذي كان يُمارَس من قبل الأمويين وأعوانهم، ولولا هذا الدفع الذي قام به الإمام الحسين «عليه السلام» من خلال نهضته، لما بقي للدين باقية، ولزالت صورة الإسلام عند الناس بمرور الوقت من خلال المشروع الأموي الذي ما استكان لحظة في طريق تحقيق هذا المخطط الشيطاني.

وقد نصر الله القويَّ العزيز، الحسين «عليه السلام» حين نصره، وإن استشهد ومن معه في ساحة المعركة، وذلك من خلال التأثير الكبير لثورته على الناس، والصدمة التي صدم

بها الواقع، فنهضت الأمة لتراجع نفسها، وتنتفض من موقع إلى آخر ضد صور الفساد والإفساد والظلم والتلاعب بالدين والمقدرات.

كما نصر الله القويُّ العزيزُ الحسينَ حين نصره، من خلال هذا الامتداد الزمني للنهضة الحسينية، فصارت مشعلاً للثورات والثائرين، وعنواناً بارزاً من عناوين صراع الحق مع الباطل. ولنأخذ أمثلة من تلك الثورات التي هزت كيان الأمويين:

١. ثورة أهل المدينة: وهي التي خرج فيها الصحابة والتابعون في المدينة المنورة على يزيد بن معاوية وخلعوه بعد السنة التي قُتل فيها الحسين «عليه السلام»، وقد بيّن عبد الله ابن الصحابي حنظلة الملقب بغسيل الملائكة - كما ينقل ابن عساكر في (تاريخ مدينة دمشق) - علّة هذا الخروج بقوله: (لما وثب أهل المدينة ليالي الحرة فأخرجوا بني أمية عن المدينة وأظهروا عيب يزيد بن معاوية وخلافه، أجمعوا على عبد الله بن حنظلة فأسندوا أمرهم إليه فبايعهم على الموت وقال: يا قوم اتقوا الله وحده لا شريك له، فوالله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرْمى بالحجارة من السماء!! إن

رجلاً يَنكح الأمهات والبنات والأخوات، ويشرب الخمر ويدع الصلاة. والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت لله فيه بلاء حسناً. فتوائب الناس يومئذ يبائعون من كل النواحي، وما كان لعبد الله بن حنظلة تلك الليالي مبيت إلا المسجد، وما كان يزيد على شربة من سويق) طعام يتخذ من القمح كالعصيدة (يفطر عليها إلى مثلها من الغد يؤتى بها في المسجد، يصوم الدهر وما رئي رافعاً رأسه إلى السماء إخباتاً. فلما دنا أهل الشام من وادي القرى صلى عبد الله بن حنظلة بالناس الظهر ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنما خرجتم غضباً لدينكم فأبلاوا لله بلاءً حسناً ليوجب لكم به مغفرته ويحل به عليكم رضوانه) «تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٧، ص ٤٢٩».

وقد أرسل إليهم يزيد جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة الذي دخل المدينة واستباحها لمدة ثلاثة أيام، وانتهك الأعراض حتى قيل إنه افتضت فيها ألف عذراء، وذكر العيني في كتابه (عمدة القاري) أنه: (ولدت ألف امرأة من أهل المدينة من غير زوج) «عمدة القاري، ج ١٧، ص ٢٦»! وقد قُتل في هذه الواقعة خلق كثير، سبعمائة من أصحاب رسول الله «صلى

اللَّهُ عليه وآله» من المهاجرين والأنصار، وشملت إبادة مَنْ حضر من البدریین بالکامل. واختلفت في عدد من قُتل من سائر الناس، فقليل أربعة آلاف، وقيل أنه أبید من الموالی والعرب عشرة آلاف!

قال ابن كثير في (البداية والنهاية): (فدخل مسلم بن عقبة المدينة فدعا الناس للبيعة على أنهم خول «عبيد وخدم» ليزيد ابن معاوية، ويحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم ما شاء... وقد أخطأ يزيد خطأ فاحشاً في قوله لمسلم بن عقبة أن يبيع المدينة ثلاثة أيام، وهذا خطأ كبير فاحش، مع ما انضم إلى ذلك من قتل خلق من الصحابة وأبنائهم، وقد تقدم أنه قتل الحسين وأصحابه على يدي عبيد الله بن زياد. وقد وقع في هذه الثلاثة أيام من المفاصد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يحد ولا يوصف، مما لا يعلمه إلا الله «عز وجل»، وقد أراد بارسال مسلم بن عقبة توطيد سلطانه وملكه، ودوام أيامه من غير منازع، فعاقبه الله بنقيض قصده، وحال بينه وبين ما يشتهي، فقصمه الله قاصم الجبابرة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿١٢﴾ «هود»، قال

البخاري في صحيحه... عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص عن أبيها قال: سمعت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقول: لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء. وقد رواه مسلم من حديث أبي عبد الله القراظ المدني، واسمه دينار، عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال: لا يريد أحد المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص، أو ذوب الملح في الماء «البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٤٣-٢٤٤».

٢. ثورة التوابين: تفجرت هذه الثورة سنة ٦٥ هـ بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي، وكان شعارهم (يا لثارات الحسين) فقد خرجوا بعد مقتل الإمام الحسين «عليه السلام» إعلاناً للندم على عدم نصرته، وتمرداً على الواقع البائس الذي ترتب على استكبار بني أمية وفسادهم وإفسادهم، فقاتلوا الجيش الأموي بمنطقة (عين الوردة) القريبة من (الرقعة) في الشام، حتى استشهدوا.

ومن خلال قراءة تفاصيل أحداث ما بعد واقعة الطف يتبين أن مجموعة من أهل الكوفة بدأت تجتمع بعد مقتل الإمام الحسين «عليه السلام» مباشرة في إطار من السرية

التامة، في حالة من النقد الذاتي، وذلك لمحاسبة أنفسهم على التقصير الذي أظهره إزاء الحسين «عليه السلام»، والتشاور على كيفية التكفير عن الذنب وغسل العار الذي لحق بهم نتيجة هذا التخاذل، فتزعم التحرك الشيعي حينئذ خمسة من كبار الزعماء الكوفيين المتقدمين في السن، الذين ارتبطوا تاريخياً بالإمام علي «عليه السلام» وآله، وهم: سليمان بن صُرد الخزاعي، المُسيّب بن نجبه الفزاري، عبد الله بن سعد بن نفيّل الأزدي، عبد الله بن وال التيمي، رفاعة بن شدّاد البجلي.

فبدأوا يمارسون نشاطهم في الخفاء، ويبشرون بدعوتهم الانتقامية في أوساط الشيعة، بعيداً عن مراقبة السلطة وجواسيسها المنتشرين في كل مكان، وشكّلوا تجمعاً سرّياً من نحو مائة معارض، ولم يلبث ذلك التجمع حتّى تحوّل إلى معارضة شيعية كبرى تحمل عنوان (التوّابين). وقد صارت هذه التسمية هي الغالبة على حركة سليمان ورفاقه، انطلاقاً من الآية الكريمة التي أصبحت شعارهم: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥١﴾ «البقرة». جمع

سليمان بن صرد الخزاعي أنصاره في منطقة النخيلة، في الخامس من ربيع الثاني ٦٥هـ، ثم سار بهم إلى قبر الإمام الحسين «عليه السلام»، وكان عددهم يقارب أربعة آلاف رجل، فما أن وصلوا إلى القبر الشريف، حتى صاحوا صيحة واحدة، وازدحموا حول القبر، فما رؤي أكثر باكياً من ذلك اليوم، فترحموا عليه، وتابوا عنده من خذلانه وترك القتال، وتجديد العهد معه. تحرّك القائد سليمان بن صرد -بعد زيارة قبر الإمام الحسين «عليه السلام»، وتجديد العهد معه- مع جنده قاصدين الشام، فوصلوا إلى الأنبار، ومنها إلى القيارة وهيت، ثم إلى قرقيسيا -وهي بلدة على مصب نهر الخابور في الفرات- وبعدها منطقة عين الورد.

وفي الثاني والعشرين من جمادى الأولى ٦٥هـ، دارت في منطقة عين الورد رحى الحرب بينهم وبين جند الشام، وأبلى التوّابون بلاءً حسناً، فكان لهم النصر أول الأمر، غير أنّ ابن زياد سرعان ما أمدّ جيش الشام باثني عشر ألفاً بقيادة الحصين بن نمير، ثمّ بثمانية آلاف بقيادة شرحبيل ابن ذي الكلاع، فأحاطوا بالتوّابين من كلّ جانب، فلمّا رأى سليمان ما يلقي أصحابه من شدّة، ترجّل عن فرسه، وهو

يومئذٍ في الثالثة والتسعين من عمره، وكسر جفن سيفه وصاح بأصحابه: يا عباد الله، من أراد البكور إلى ربه والتوبة من ذنبه والوفاء بعهده، فليأت إليّ. فاستجاب له الكثيرون، وحذوا حذوه، وكسروا جفون سيوفهم، وقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة، حتّى أصيب زعيمهم سليمان بسهم، فوقع وهو يقول: فزت وربّ الكعبة. وحمل الراية بعده المسيّب بن نجبة، فقاتل بها حتّى استشهد، بعد جهود مستمّية، وتبعه بقية القوّاد وعدد كبير من المقاتلين، باستثناء رفاعه بن شداد الذي اعترف بالهزيمة وأدرك عدم جدوى القتال، وكانت القيادة قد انتقلت إليه، فأصدر أوامره سرّاً إلى البقية الباقية من التّوّابين بالانسحاب والتراجع. وتمّت عملية التراجع بنجاح، وابتعد التّوّابون المنسحبون عن ميدان المعركة، وأصبحوا في منأى عن مطاردة الجيش الأموي.

٣. ثورة المختار: كانت بعد عام من ثورة التّوّابين، أي في سنة ٦٦ هـ، قادها المختار بن عبيد الله الثقفي في الكوفة، رافعاً شعار (يا لثارات الحسين)، واستطاع من خلالها قتل قتلة الحسين «عليه السلام»، كعمر بن سعد وعبيد الله بن زياد وحرملة بن كاهل الأسدي وشمر بن ذي الجوشن.

بالإضافة إلى السيطرة على الكوفة وأنحاء أخرى من العراق لمدة سنتين تقريباً.

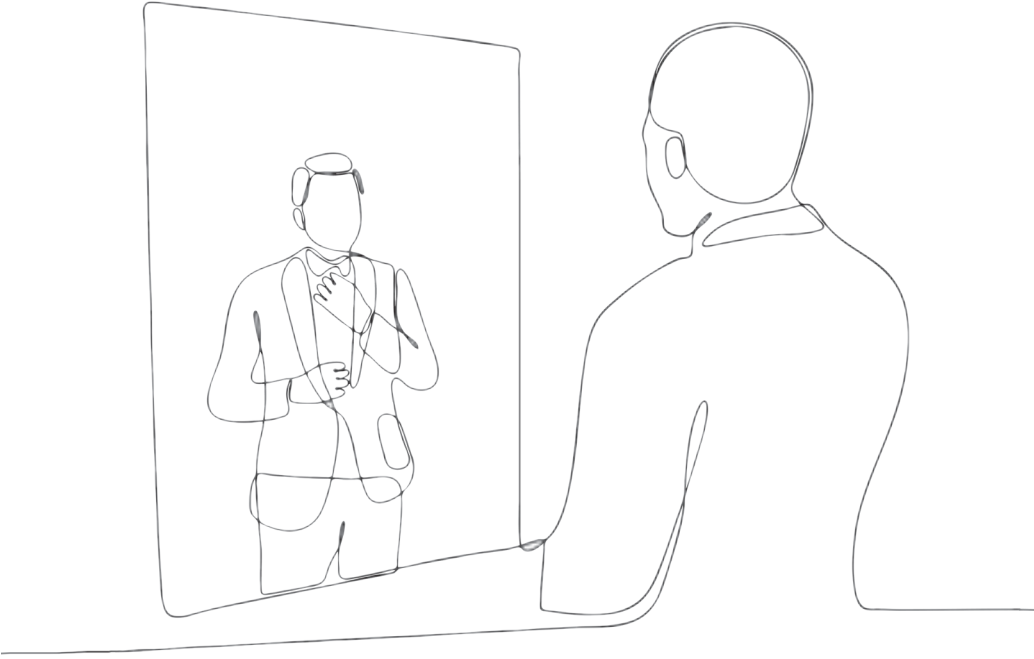
وفي تلك الأثناء كان عبد الله بن الزبير قد انتفض على الأمويين، واستفحل أمره في الجزيرة العربية، فولّى سنة ٦٧هـ أخاه مصعباً على العراق، وطلب منه أن لا يبقى للمختار وأصحابه باقية فيها. ووقع القتال في البصرة بين مصعب وقوة تابعة للمختار، فانتصر الأول، وتوجه نحو الكوفة، وحاصر المختار في قصره لأربعة أشهر، انتهت بمقتله وقطع رأسه، في الرابع عشر من رمضان سنة ٦٧هـ.

وهكذا توالى الثورات كثرة زيد ابن الإمام علي بن الحسين زين العابدين «عليه السلام» في الكوفة سنة ١٢١هـ ضد هشام بن عبد الملك حيث بلغ تردي الأوضاع وانتشار الظلم والفساد والفقر وبذخ الحكام مبلغاً لا يطاق، مما حدا بزيد الشهيد للقيام بثورته، ثم ثورة يحيى ابنه، وكانت سنة ١٢٥هـ بعد مقتل أبيه زيد، وقد أقبل إليه جيش الأمويين وهو مقيم بأبرشهر القريبة من مدينة مشهد الحالية، فقاتلهم يحيى وما معه إلا سبعين فارساً فقتل قائدهم وانهزموا، ثم انتقل إلى نواحٍ من أفغانستان الحالية، فقاتله جيش

آخر حتى استشهد يحيى بعد قتال دام ثلاثة أيام، وثورة عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب أبان حكم إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك بن مروان، وثورة عبدالرحمن بن الأشعث أبان حكم عبدالملك بن مروان.

وكان للخوارج نصيبهم من الثورات أيضاً، تارة بقيادة نجدة ابن عامر في البحرين واليمامة فُقتل سنة ٦٢هـ، ونافع بن الأزرق المقتول بالبصرة سنة ٦٥هـ، وعبدالله بن الماحوز المقتول بالأهواز بعد هزيمته سنة ٦٦هـ، وقطري المازني المقتول سنة ٧٧هـ، وسواهم من قادة الخوارج.

كما شهد البيت الأموي ثورات داخلية، كثورة الضحاک بن قيس الفهري في محاولته للاستقلال عن حكم بني أمية، وعمرو بن سعيد الأشدق الخارج على عبدالملك بن مروان عام ٦٩هـ، وسلم بن زياد الذي دعا إلى البيعة لنفسه عام ٦٥هـ بخراسان، ويزيد بن المهلب بن أبي صفرة الخارج على يزيد بن عبدالملك بن مروان وقُتل سنة ١٠٢هـ.





المعارضة والفساد

هل المعارضة السياسية في حدّ ذاتها أمر مطلوب وحالة صحية؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل بالضرورة أن تكون باللجوء لاستعمال القوة؟

فلنتوقّف -أولاً- عند تعريف مصطلح (المعارضة) في عالم السياسة، ومن ثمّ نبحث عن الإجابة على السؤالين السابقين.

لغويّاً، كلمة المعارضة لا تدلّ بشكل مباشر على المعنى السياسي المعاصر للكلمة، ولكنها تحمل في طياتها هذا المعنى.

فمن معانيها اللغوية: المقابلة، والمدارسة، والمتابعة، كما أنها تتضمن معنى المباراة، والمحاكاة، والمحاذاة، فضلاً عن معنى: المغالبة، والممانعة.

وقد تطوّرت دلالة هذه الكلمة في الاستعمال الحديث، وانتقلت من هذا المعنى الحسيّ لها، إلى المعنى المعاصر الذي يشير إلى وضع معيّن في الحياة السياسية، أو غيرها. والمعارضة في الاصطلاح السياسي الحديث تعني: الموقف المخالف لسياسات وإجراءات وقرارات القوة/أو القوى السياسية التي تُمسك بزمام السلطة.

كما أنّ نفس الكلمة تدلّ على الجهة/أو الجهات التي تقوم بهذا الدور، كالأحزاب والكتل النيابية والتجمّعات النقابية.

والمعارضة كفعل - من حيث المبدأ - حالة صحية:

١. ما لم تكن غاية في ذاتها، فالمعارضة لأجل المعارضة حالة غير صحية، والمطلوب أن تكون المعارضة قائمة بسبب وجود خلل فعلي وحقيقي، ويكون الظرف لإثارته مناسباً ويصبّ في المصلحة العامة.

٢. وما لم تكن خدمةً لأجندات دولٍ أخرى، مجاورة أو

إقليمية أو عالمية.. حيث ستكون المعارضة حينذاك نوعاً من الخيانة الوطنية.

٣. وما لم تتبدّل إلى حالة مصلحة بحتة، كالاستنفاع المادّي، أو للتسلّط على الشعب لقهره.

• المعارضة على عهد النبي:

وهل كانت في عصر النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» أية صورة من صور المعارضة السياسية؟

من المعلوم أنّ المؤمنين كانوا ملزّمين بطاعة رسول الله أمور دينهم ودنياهم: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ۖ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝﴾ «النساء»

وإذا كانت في البين آراء مخالفة لما كان يطرحه ضمن بعض الترتيبات العسكرية -مثلاً- كما تذكر بعض الأخبار التاريخية حيث كان يقترح أو يعترض بعض أصحابه على الموقع المختار كمعسكر للجيش الإسلامي أو في طريقة مواجهة العدو الغازي، فإنّ تلك الاقتراحات المخالفة أو

الاعتراضات لم تكن لترتقي إلى مستوى يعبر عنها بأنها صورة من صور المعارضة السياسية.

وأما (المشاقّة) التي تحدّثت عنها الآية ١١٥ من سورة النساء فهي كناية عن المخالفة مع العداوة، وشق العصا، بما يؤدي إلى مفارقة الجماعة.. أي أنّ الآية تتحدّث عن أولئك الذين يثيرون الشقاق والنزاع مع الرسول أو مع الرسالة، بعد أن قامت عليهم الحجة من الله «تعالى» ووضح لهم الحق، وترتب العقوبة لما يحمله ذلك الفرد من روح التمرد على الله، لا لمجرد ما يحمله من رأي مخالف، فالمراد أنّ هذا النموذج من الناس كانوا يتبعون غير سبيل المؤمنين في الإخلاص لله ولرسوله وأتباع أوامره ونواهيه، وهو النموذج المنطبق على المنافقين إذ كانوا يحملون مشروعا مخالفاً ومعارضاً لمشروع الرسول والرسالة، ويعملون على ذلك، وهو ما يعكسه الوصف في الآيات التالية: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۖ﴾ (٧) يَقُولُونَ لِنِ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ «المنافقون»

وهناك عدة مشاهد من سيرة النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» تجلّت فيها معارضة عبدالله بن أبي بن سلول على وجه التحديد -ومعه زمرة المنافقين- لقرارات النبي وبجدة، ومن بينها ما جرى في غزوة أحد عندما اتخذ رسول الله القرارَ بالخروج، فوقف ابن سلول في المسجد النبوي -بحسب الرواية- وعارض القرار بشدة وتلقّظ بكلمات جارحة، ثم لما خرج إلى أحد -مع مَنْ خرج من المسلمين- عاد منكفئاً مع ثلث الجيش تقريباً! وإذا كان كبار الصحابة قد أشاروا أحياناً على النبي باستخدام القوة لردع المنافقين (المعارضين) في مواقف كثيرة، إلا أنه «صلى الله عليه وآله» امتنع عن ذلك بشكل مطلق، وتعامل معهم بنفس طويل، وصبر عميق، ومن خلال سياسة الاحتواء والاستيعاب.

• المعارضة على عهد علي:

واستمر الحال -إجمالاً- على عهد الخليفتين أبي بكر وعمر والقسم الأول من عهد الخليفة عثمان، ثم تغيّر الأمر في القسم الثاني من فترة حكمه حيث صارت المعارضة السياسية تُقَمَّع، وخير مثال على ذلك ما جرى للصحابي الجليل أبي ذر الغفاري.

ثم عاد الأمر إلى سابق عهده حينما استلم الإمام علي بن أبي طالب «عليه السلام» الحكم، حيث بين القاعدة في موقفه من المعارضة ضمن المشهد التالي الذي رواه الشريف الرضي - وآخرون - عندما وقف أحد الخوارج (المعارضة) أمام جموع الناس مقاطعاً الإمام وهو في المسجد وقال: (قاتله الله كافراً ما أفقهه)! فوثب القوم ليقتلوه، فقال «عليه السلام»: (رويداً، إنما هو سبُّ بسبِّ أو عفو عن ذنب) «نهج البلاغة، الحكمة ٤٢٠».. ولم يتحوّل الموقف المعارض - على الرغم من قبح مضمونه ووقاحة أسلوبه - إلى عقوبة سجن، أو هدم دار، أو منع من عطاء من بيت المال.

وهكذا كرّر الإمام ذات القاعدة وأكد على ذات الموقف قبيل وقوع حرب النهروان - قبيل وقوعها - وضمن محاولاته الحوارية لإقناع الخوارج - كمعارضة مسلّحة استعملت القوة غير المشروعة ضد الأبرياء وفي إثارة الأجواء غير الآمنة - بالرجوع عن القتال حيث قال لهم: (إنّ لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتُمونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا الفيء ما دتم معنا، ولا نقاتلكم حتى تبدؤونا وننتظر فيكم أمر الله) «ديوان المبتدأ والخبر، ج ٢، ص ١٧٨».

بل إنه «عليه السلام» شجّع على المعارضة الصادقة والمخلصة لما لها من آثار تقويمية، قال: (فلا تكلموني بما تُكَلِّمُ به الجبابرة، ولا تتحفّظوا مني بما يُتَحَفَّظُ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنّوا بي استثقالاً في حقّ قيل لي، ولا التماس إعظام لنفسي، فإنه من استثقل الحقّ أن يُقال له أو العدل أن يُعرَضَ عليه، كان العملُ بهما أثقل عليه. فلا تكفّوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل، فإني لست في نفسي بفوق أن أخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي إلا أن يَكْفِيَ الله من نفسي ما هو أملك به مني، فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لربّ لا ربّ غيره) «نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦».

وقد قدّم «عليه السلام» حالة أرقى من مجرد تقبّل المعارضة السياسية والمحافظة على حقوقها، حيث اعتبر أنّ من صفات المؤمنين أن يمتنعوا عن سبّ رموزها وأشخاصها ولعنهم، والاستعاضة عن ذلك بالدعاء والابتهال لهدايتهم، ولو كانت المعارضة القائمة في أشدّ صورها. جاء هذا في النص الذي نقله مجتزء الشريف الرضي في نهج البلاغة، وأنقله كاملاً من كتاب «تمام نهج البلاغة» للسيد صادق الموسوي، وفيه: (كلامٌ له «عليه السلام» وقد سمع

قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حرب صفين، فأرسل إليهم أن كفوا عما يبلغني عنكم. فأتوه فقالوا: يا أمير المؤمنين، ألسنا مُحَقِّقِينَ؟ قال «عليه السلام»: بلى. قالوا: أليسوا مُبْطِلِينَ؟ قال «عليه السلام»: بلى. قالوا: فلم منعنا من شتمهم؟ فقال «عليه السلام»: إني أكره لكم أن تكونوا سبائين شتامين لعانين تشتمون وتبترؤون ولكنكم لو وصفتُم مساوئ أعمالهم، وذكرتم حالهم وسيرتهم كانا صوب في القول وأبلغ في العذر، ولو قُلتُم مكان سبكم ولعنكم إياهم وبراءتكم منهم: «اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدِهِم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به»، لكان هذا أحب إلي، وخيراً لكم) «تمام نهج البلاغة، ج ٥، ص ٤٩٨».

• الجذور الشرعية للمعارضة:

وإذا أردنا أن نعود إلى الجذور الشرعية للمعارضة، فسنجدها مُتضمَّنة في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالتالي هي ليست مجرد حالة مطلوبة بل ومسئولية تبلغ حد الوجوب الكفائي.

فبالإضافة إلى الدعوة إلى ما هو خير وتذكير الناس بما

ينفعهم، فإن نصيباً ملحوظاً من هاتين المسئوليتين يتمثل في أن تُعارض ترك المعروف، كما وتُعارض فعل المنكر بمعناهما الشامل، فالإسلام لا يتحدث فقط عن منكر شرب الخمر أو لعب الميسر أو الزنا أو ترك الصلاة وأمثال ذلك، بل إنه يتحدث أيضاً عن أن الفساد الإداري منكر..

والاختلاس منكر..

والرشوة منكر..

وقهر الحريات المسئولة منكر..

وإعانة الظالم منكر..

وتعطيل الحقوق منكر..

والتسيب الوظيفي منكر..

والمحسوبية منكر.. إلخ.

بالطبع، لا يقتصر الأمر - في المفهوم الإسلامي - على الجانب السياسي والإداري، بل إنه يشمل الجوانب الدينية والثقافية والأخلاقية والسلوكية والاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك كما هو واضح.

كما لا تقع المسؤولية - في المنظور القرآني - على جهة

واحدة، بل اعتبر أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، -وبالتالي المعارضة في حالتها الصحية والنافعة- من مسئولية ثلاث جهات، وليس جهة واحدة:

١. الفرد: ﴿يَبْنِيْ اَقِيْمَ الصَّلٰوةَ وَاْمُرْ بِالْمَعْرُوْفِ وَاَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاَصْبِرْ عَلٰى مَا اَصَابَكَؕ اِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْاُمُوْرِ﴾ (١٧) «لقمان»
٢. الجماعة: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ اُمَّةٌ يَدْعُوْنَ اِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِؕ وَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ﴾ (١١٤) «آل عمران»

٣. السلطة: ﴿الَّذِيْنَ اِنْ مَّكَّنٰهُمْ فِي الْاَرْضِ اَقَامُوْا الصَّلٰوةَ وَءَاتَوْا الزَّكٰوةَ وَاْمُرُوْا بِالْمَعْرُوْفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِؕ وَلِلّٰهِ عَاقِبَةُ الْاُمُوْرِ﴾ (١١) «الحج»

وبالتالي فإنّ من مسئولية السلطة السياسية أن تعمل على نشر وتمكين قيم الخير والحق والعدالة، كما وعليها أن تعارض وتنتهى عن ما يخالف ذلك، وتسعى لمنعه ورفع.

ولعل هذا القسم الأخير يبدو غريباً للوهلة الأولى، وغير مشمول في المفهوم الحديث للمعارضة السياسية، إلا أن دلالة الآية السابقة تُعطي هذه السعة لمفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذي يشمل ضمناً مفهوم المعارضة.

ومن هنا نشأ ديوان الحسبة في النظام الإداري للدولة الإسلامية، وكانت مسئولية هذا الديوان القيام بهذا الدور المعارض والتصحيحي لأيّ مظهر من المظاهر العامة للمُنكَرَات التي لم تقتصر على الجانب السياسي فحسب، بل كانت تشمل الجوانب الحياتية المختلفة، وهذا ما نبّه عليه الماوردي في كتابه (الأحكام السلطانية) حيث بيّن أن من وظائف ديوان الحسبة:

المحافظة على النظافة في الطرق..

الرأفة بالحيوان بأن لا يُحمّل ما لا يطيق..

رعاية الصّحة بتغطية الروايا..

منع المعلمين من ضرب الأطفال ضرباً مُبرحاً..

مراقبة تبرّج النساء..

منع الغش في الصناعة والتجارة والمعاملات.. إلخ

• المعارضة البرلمانية:

والبرلمان في النظام السياسي الحديث حين يراقب أداء الحكومة ويحاسبها، فإنما يقوم ببعض مهام ديوان الحسبة. وفي بعض الأنظمة يتم تشكيل حكومة الظل وهي: (حكومة

غير رسمية ودون قوة فعلية، تضم أعضاء من الأحزاب المعارضة للحزب الموجود بالسلطة، وتعمل على توجيه النقد للحكومة الحالية، وتوفير منظور مختلف للسياسات التي تنفذها الحكومة الفعلية، وتكون بديلاً جاهزاً في حال فشل الحكومة الفعلية).

وسواء أكنّا نتحدث عن ديوان الحسبة أو البرلمان أو حكومة الظل وأمثال ذلك، فالغاية واحدة، وهي مراقبة الأداء السياسي والإداري للسلطة الحاكمة انطلاقاً من الروح الوطنية، لا من منطلق المصلحية، أو خدمة الدول الأخرى، أو المعارضة للمعارضة.

• مرآة.. لا صورة:

والسماح بوجود مثل هذه المعارضة في النظام السياسي لأيّ بلد علامة رُقيّ وتحضّر، لأن السلطة السياسية في نهاية المطاف ليست معصومة عن الخطأ، وغايتها -بحسب الفرض- خدمة الوطن والمواطنين، وكما أنه على المستوى الفردي: (المؤمن مرآة أخيه المؤمن)، فإنّ السلطة الحاكمة بحاجة إلى مرآة، والمعارضة -كالمعارضة البرلمانية- هي المرآة بالنسبة إليها، ومن هنا، لو سَعَت

السلطة الحاكمة إلى أن تجعل البرلمان مالياً لها، فقد أزالَت المرأة، ووضعت محلها صورة لها.. والإنسان عندما يقف أمام المصوِّر يقف أمام الإضاءة المنصوبة بحسابات هندسية، وبأبهى حُلّة، تعلو وجهه الابتسامة المصطنعة، ثم يتدخل المصوِّر لاحقاً بالرتوش.. والنتيجة: صورة لا تمثِّل الحقيقة كما هي، ولا تعكس الأطوار المختلفة التي يمرُّ بها الفرد خلال يومه، حيث تتغيَّر ملامحُه بسبب النوم، ويبدو عليه الإجهاد بعد العمل الطويل، لأو لم يشدَّب شاربه ولحيته لعدة أيام... إلخ. هذا كله على خلاف المرأة التي تكشف حقيقة الإنسان في حالاته المختلفة، والحكومة الصادقة مع نفسها ومع الشعب لن تستفيد من برلمان في الجيب.. الحكومة الضعيفة أو التي لا تثق بنفسها هي التي تسعى لذلك، ولذا فإنَّ من المفترض بأية حكومة مخلصَة ووطنية أن تشجّع المعارضة المخلصَة والوطنية التي تعينُها على تصحيح أخطائها لتحقيق الإنجازات في المجالات المختلفة بأقل الخسائر والتكاليف.

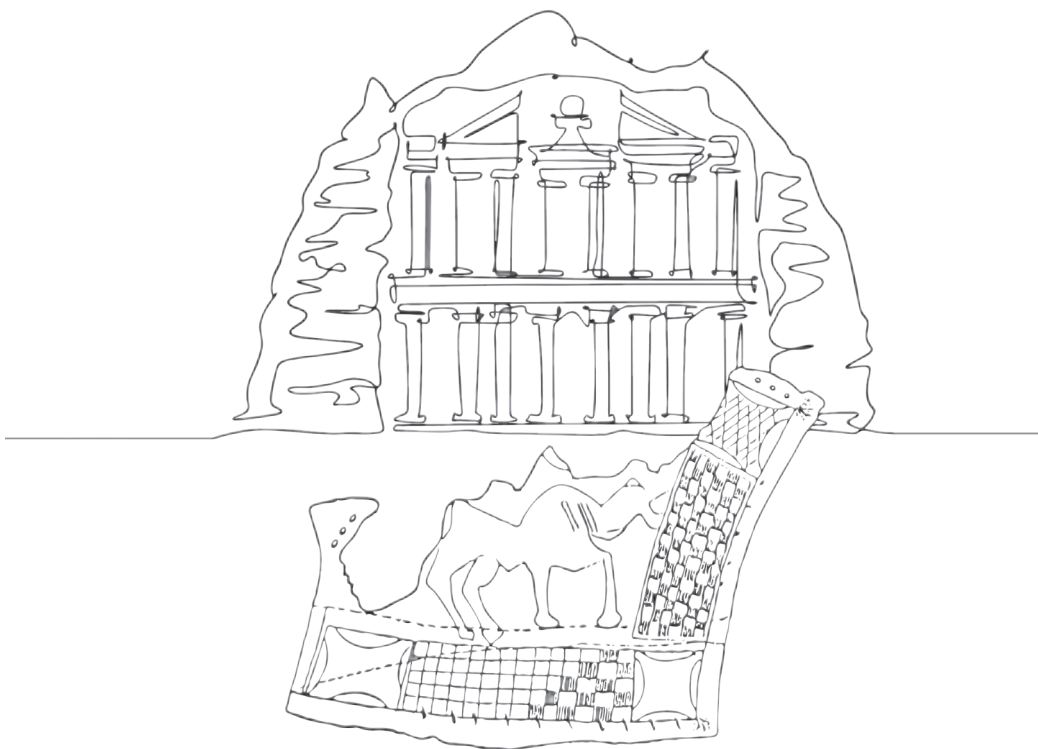
• حالة صحيّة:

ومن مجموع ما سبق يتّضح لنا أنَّ الإسلام ينظر إلى

المعارضة السياسية كحالة صحية ومطلوبة، وتقع على عاتق الجميع، السلطة والشعب.. الأفراد والجماعات.. بل هي ترتقي لتكون مسئولية شرعية، إذ أنها من موارد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على أن يكون منطلقها دائماً ضمن الإطار الذي لخصه الإمام الحسين «عليه السلام» حيث قال: (وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي «صلى الله عليه وآله»، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب) «بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٢٩»، فالمعارضة لأجل المعارضة أمر مرفوض، لأن فلسفة وجود المعارضة السياسية في الأساس نابعة من أهمية دورها الفاعل في مساءلة ومراقبة أداء النظام السياسي وتقويم سلوكه وترشيده. كما وأن المعارضة لخدمة الأجندات الحزبية أو الخارجية أو لتحقيق المصالح الشخصية على حساب الوطن والمصلحة العامة أمر مرفوض.

وما دامت المعارضة ناشئة من مسئوليتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنها بالتالي محكومة بالأطر والشروط التي حدتها الشريعة فيما يخص مراتب الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، وتدرّجها، وحدودها، وانتقالها من مرتبة إلى أخرى، لاسيّما في خصوص استعمال القوة في تغيير المنكر والباطل، ولوقرأنا تطوّر معطيات حركة الإمام الحسين «عليه السلام» عند خروجه من المدينة فمكة فالعراق، لوجدنا أنه حين ووجه بالمنع من دخول الكوفة حاول أن يعود من حيث أتى، فلعلّه يقوم بدوره في مواجهة الفساد والباطل والمنكر والظلم بطريقة تبتعد عن المواجهة المسلّحة كخيار أوّل، وأن يبحث عن بيئة حاضنة لتحمل تلك المسؤولية بديلاً عن الكوفة، ولكنه مُنِع من ذلك، وأُجبر على الخضوع والذل أو المواجهة بالقوة والقتل في سبيل الله «عز وجل»، فكان ذاك خياره، كما بيّن ذلك بشكل واضح في خطبته العاشورائية الثانية حيث قال: (ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعيّ قدّ ركز بين اثنتين، بين السلة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحُجور طابت وحجور طهرت، وأنوف حمية، ونفوس أبيّة، من أن نُؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا وإنّي زاحف بهذه الأسرة على قلّة العدد وخذلان الناصر) «بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٨٣».





لا يحبّون الناصحين

في قصة النبي صالح «عليه السلام» القرآنية حديثٌ عن الفساد والفاستدين ودور هذا النبي الكريم في الإصلاح، وأن الناس قد يحبّون الإنسان الصالح، وتكون له مكانة عندهم، إلا أنه إذا مارس دور الإصلاح، وقَدّم لهم النصيحة، ونهاهم عن المنكر، وأمرهم بالمعروف، فإنّ موقفهم -عادةً- يتبدّل إلى الموقف السلبي المناهض لهذا الصالح، ويفقد تلك المكانة التي كان ينالها عندهم.

وإذا أردنا أن نرتّب عصور بعض الأنبياء «عليهم السلام» من خلال نص وظاهر سياق بعض الآيات القرآنية، فيمكننا التوصل إلى أنها كانت وفق الترتيب التالي:

١. عصر النبي نوح «عليه السلام»
٢. عصر النبي هود «عليه السلام»
٣. عصر النبي صالح «عليه السلام»
٤. عصر النبيين إبراهيم ولوط «عليهما السلام»
٥. عصر النبي شعيب «عليه السلام»

وسياق الآيات التالية تدلّنا على ذلك: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ..... ٥٩..... وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا..... ٦٥..... وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا..... ٧٣..... وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ..... ٧٤..... وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ..... ٨٠.....﴾ «الأعراف».

بل نصّت الآية ٧٤ على أنّ قوم ثمود جاءوا في الترتيب الزمني بعد قوم عاد.

وهكذا يدل سياق الآيات التالية على نفس الترتيب السابق: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ..... ٦٥..... وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا..... ٥٩..... وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا..... ٦٦..... وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ..... ٦٩.....﴾ «هود».

ونستدل على تأخر عصر النبي شعيب «عليه السلام» على عصر النبيين إبراهيم ولوط «عليهما السلام» ومن

سبقهما من الأنبياء المذكورين أعلاه من خلال ما جاء في الآية التالية: ﴿وَيَقَوْمٌ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٩) «هود».

وحيث أنَّ عصر إبراهيم ولوط كان في حدود ١٧٠٠ ق.م كما حققت ذلك في كتاب (أبوالأنبياء)، لذا فمن المحتوم أن يكون عصر النبي صالح قبل أكثر من ٣٧٠٠ سنة.

• وصف قوم ثمود:

يمكننا من خلال تتبع الآيات القرآنية أن نقدّم تصوّراً إجمالياً حول قوم ثمود:

١. النمط المميّز لمساكنهم والتي كانت تنقسم إلى نوعين، القصور المبنية والبيوت المحفورة في الجبال: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا.....﴾ (٧١) «الأعراف».

وكانوا يَتَقَنُونَ هذه الصنعة، فهي ليست كالكهوف التي تظهر بشكل حُفر بسيطة في الجبال: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ (١٢٩) «الشعراء». قال ابن عاشور: (مشتق من

الفراهة وهي الحذق والكياسة، أي عارفين حذقين بنحت البيوت من الجبال بحيث تصير بالنحت كأنها مبنية) «التحرير والتنوير، ج ١٨، ص ١٧٦»، بما قد ينطبق على الآثار الموجودة في ما يُعرف بعنوان (مدائن صالح) في محافظة العلا في المملكة العربية السعودية.

٢. نُسَبُوا إِلَى الْحِجْرِ، عَلَى اخْتِلَافِ الْمَفْسِّرِينَ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ وَبَيَانِ الْمُرَادِ مِنْهُ: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ «الحجر»، قال ابن عاشور: (الحجر المكان المحجور، أي الممنوع من النَّاسِ بسبب اختصاص به) كما في حجر إسماعيل «عليه السلام»... أو اشتقَّ من الحجارة لأنهم كانوا ينحتون بيوتهم في صخر الجبل نحتاً محكماً) «التحرير والتنوير، ج ١٣، ص ٧٣».

٣. كانوا يشتغلون في الزراعة وتميّزت أرضهم بالخصب والغنى بالمياه: ﴿أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَلَهْنَا ءَامِنِينَ﴾ (١٢) فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ (١٣) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَضِيمٌ ﴿ (الشعراء).

وهذا يعني أنه قد تحقّق لهم الأمن الغذائي، والمائي، ومن حيث المسكن، والذي كان منحوتاً، فحقّق لهم الأمن من الغزاة والحوادث الطبيعية، أي أنّ مساكنهم لم تكن كالخيام

وبيوت الشعر التي تفقد هذه الميزة تماماً، وهذا ما أشارت إليه الآية في قوله «تعالى»: ﴿وَكَاْنُوا يَنْحِتُوْنَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوْتًا ءَامِنِيْنَ﴾ ﴿٨٢﴾ «الحجر». قال العلامة الطباطبائي: (أي كانوا يسكنون الغيران والكهوف المنحوتة من الحجارة آمنين من الحوادث الأرضية والسماوية بزعمهم) «الميزان، ج ١٢، ص ١٨٥».

وقال العلامة ابن عاشور: (كانت لهم بمنزلة الحصون لا ينالهم فيها العدو) «التحرير والتنوير، ج ١٣، ص ٧٤».

٤. كانوا شديدي الإفساد في الأرض: ﴿وَاذْكُرُواْ اِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْاَرْضِ تَتَخِدُوْنَ مِنْ سُهُوْلِهَا قُصُوْرًا وَتَنْحِتُوْنَ الْجِبَالَ بُيُوْتًا فَاذْكُرُواْ ءَالَآءَ اللّٰهِ وَلَا تَعْنُوْاْ فِي الْاَرْضِ مُفْسِدِيْنَ﴾ ﴿٧٦﴾ «الأعراف». ومعنى قوله: ﴿وَلَا تَعْنُواْ﴾: ولا تُفسدوا أشد الإفساد.

وبنظرة أولية.. هل تنطبق الأوصاف السابقة على ما يُعرف بعنوان (مدائن صالح) في محافظ العُلا؟

○ من حيث الاسم: نعم.

○ من حيث الظروف البيئية: كلا، ولكن يمكن توجيه ذلك بأن الظروف البيئية يمكن أن تتغير بسبب التصحر

والتغيّر المناخي وما شابه ذلك. ومن المعلوم أن الجزيرة العربية لم تكن بهذه الصورة الصحراوية قبل بضعة آلاف من السنين، فقد شهدت قبل ما يقرب من عشرة آلاف سنة زيادة كبيرة في هطول الأمطار أدّت لنشأة العديد من البحيرات، وتوسع الغطاء النباتي فانتشرت عبر أرجائها المستوطنات البشرية، لكن سلسلة من حالات الجفاف الشديد -وعلى مدى آلاف السنين- أدّت إلى تغييرات جذرية في النظام البيئي.

○ من حيث طبيعة المسكن: كلا، فقد صرّح بعض الباحثين المعاصرين بأن الدراسات التاريخية والآثارية الأخيرة تشير إلى أنّ ما تم حفره في جبال محافظة العلا عبارة عن مقابر لا بيوت، بينما القرآن يصرّح بأنها كانت بيوتاً لهم، بالإضافة إلى القصور التي اتخذوها في السهول. قال الدكتور عبدالرحمن الأنصاري: (جبال «مدائن صالح» المنحوتة في حقيقتها مقابر نبطية عائلية، وأبرز الأدلة توثيق الأنباط لتاريخ نحتها مضمّنين وصاياهم كمقابر لأسرهم) «صحيفة المدينة السعودية، الصادرة في ٢٤ فبراير ٢٠١٩».

وقال الدكتور فرج الله يوسف: (كل ما في الحجر مقابر، بالإضافة إلى المنطقة الدينية المتمثلة في الديوان وقصر العجوز، أما المنطقة السكنية فما زال البحث عنها مستمراً) «صحيفة الشرق الأوسط، العدد ١٠٢٩٣».

○ من حيث العصر: كلا. فتصميم الواجهات وما تم تدوينه من أسماء للمدفونين والآثار تعود إلى ٧٠٠ سنة قبل بعثة النبي تقريباً كحد أقصى، والمفترض أن تعود بيوت قوم ثمود إلى ما قبل ٢٤٠٠ سنة عن البعثة على الأقل. فالآثار التي نشاهدها حالياً في (مدائن صالح) تخص الأنباط حيث احتل هذا الموقع السكاني المرتبة الثانية بعد عاصمتهم البتراء في الأردن التي تبعد عنها ٥٠٠ كم. ويعود أبرز أدوار الأنباط الحضارية إلى القرنين الأول قبل الميلاد والأول الميلادي، وذلك خلال فترة ازدهار الدولة النبطية وقبل سقوطها على يد الإمبراطورية الرومانية عام ١٠٦ م. ويُعتقد أن الحجر استمرت في حضارتها حتى القرن الرابع الميلادي.

وهناك بالإضافة إلى ذلك، بعض الآثار الخاصة بعصر اللحيانيين والدادانيين العرب الذين استوطنوا في نفس

الموقع قبل الأنباط بعدة قرون، ولكنها على أيّ تقدير، لا تصل إلى عصر النبي صالح.

وعليه، فإنّما أن نقول بخطأ ما يشيع من كون هذه المنطقة هي مساكن قوم ثمود، وأنه تطبيق ارتجالي لما في الآيات القرآنية على منطقة عرفها العرب في شبه جزيرتهم، أو أن نقول بصحة هذا القول، ولكن من المحتمل أنه بعد إنزال العذاب بقوم ثمود الذين استوطنوا في هذا المكان وحضروا تلك البيوت في الجبال، جاء الدادانيون واللحيانيون بعد ألف سنة أو أكثر، واستفادوا من الحجرات المنحوتة، وعمرّوا الموقع، ثم جاء الأنباط بعدهم بقرون، واستوطنوا الموقع، وحولوا المكان إلى مدافن لموتاهم، وزيّنوا الواجهات الحجرية إلى الصورة التي نشهدها بطابعها القريب من البتراء. ثم هُجر الموقع تدريجياً بعد الاحتلال الروماني، وتصور الناس أن الموقع مهجور منذ عهد النبي صالح.

• صالح في القرآن:

وقد تعرّض القرآن الكريم لقصة النبي صالح «عليه السلام» في أكثر من موقع، واهتمّ بها منذ بدايات العهد المكي، ومن بين ما حكى عنه القرآن الكريم من قصّة هذا

النبي ما جاء في سورة هود حيث قال «تعالى»: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝١١﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝١٢﴾ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ۝١٣﴾ وَيَاقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ۝١٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِذٍ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝١٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثَمِينَ ۝١٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ آلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۚ آلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ۝١٨﴾

• تبدل المواقف:

ظاهر الآيات القرآنية أن قوم صالح «عليه السلام» كانوا يحبّونه ويقدرّونه قبل أن يبدأ بجهوده الإصلاحية التي واجه

فيها قومه في إطار محاربة الشرك وإعادتهم إلى فطرة التوحيد: ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٦﴾﴾ «هود». وكأنهم يقولون: لقد كانت الآمال معقودة عليك أن يكون لك شأن كبير في مجتمعنا من خلال ما تتمتع به من: خلق، وشخصية متزنة، وحكمة.

ثم تحول موقفهم إلى موقف الاتهام بأنه يستبطن أهدافاً شخصية من وراء هذه الدعوة (الغريبة والمستهجنة) التي خالف بها تراث الآباء والأجداد: ﴿...أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٦﴾﴾ «هود».

من الواضح أن قومه لم يرغبوا في مناقشة مضمون دعوته، بل إفشالها من خلال الضرب على الوتر العاطفي في ما له علاقة بقديسيّة الموروث والارتباط الروحي بالآباء، ومن خلال اتهامه -زوراً- باستيطان دوافع ذاتية قد تتمثل في المُلْك، أو المال، أو الجاه، أو غير ذلك.

• تشابه الحال:

وهذا ينطبق تماماً على الوضع الذي واجهه رسول الله «صلى الله عليه وآله» حين دعا قريشاً لنبذ الشرك

بالله «تعالى»، فقد كان ذا شخصية محترمة اجتماعياً ومحبوبة، وعُرف بالصادق الأمين، الحكيم، المتّزن، العادل... فإذا بمشاعرهم ومواقفهم تتبدّل إلى اتّهامه بالجنون والسحر والكذب، ومحاولة التأثير على مواقف الناس من دعوته ومحاولة التأثير على مواقف الناس من دعوته من خلال الضرب على الوتر العاطفي، واتّهامه باستبطان أهداف شخصية، وغير ذلك.

وهناك عدة تشابهات بين الدعوتين من أوجه أخرى، ومن بينها:

١. إيمان مستضعفي قوم ثمود بالنبي صالح «عليه السلام» على خلافِ عليه القوم الذين استكبروا وطفغوا، وهو ما يشابه ما كان عليه الوضع في مكة حين دعا نبينا «صلى الله عليه وآله» قومه: ﴿قَالَ أَلَمْأَلَأَ الَّذِينَ أَتَكَبَّرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٦﴾ قَالَ الَّذِينَ أَتَكَبَّرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِءُ كَافِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ «هود».

٢. المطالبة بالآيات المادية بعد اتّهامه بالسحر والكذب على الله «عز وجل»، فاستجاب الله لطلبهم، وكانت الناقة

آيتهم، ولكن موقفهم لم يتغير، بل ازدادوا كفراً وطغياناً، إذ ارتكبوا جريمتهم وعقروا الناقة عن علم وعمد وإرادة للشر: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾ «الشعراء».

وقد حدد القرآن الكريم عدد المتأمرين لارتكاب هذه الجريمة: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبَلَكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَخْبَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ «النمل»، وأن المنفذ كان رجلاً واحداً منهم: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ «الشمس».

واستدلّ القرآن الكريم بذلك على عدم الفائدة من وراء الاستجابة لطلب قريش وإلحاحهم المستمر بإرسال الآيات المادية التي تُبَصِّرُ بالعين، لادّعائهم عدم كفاية الآيات غير المادية المتمثلة في القرآن الكريم للدلالة على صحة نبوة محمد «صلى الله عليه وآله»: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ٥٩﴾ «الإسراء».

٣. إنكار نبوة صالح «عليه السلام» بلحاظ بشريّته، كما أنكرت قريش نبوته «صلى الله عليه وآله» بنفس اللحاظ: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ١٥٤﴾ «الشعراء»، ومثّل هذا منطق الأمم المختلفة وحجّتها الواهية حين كذبوا الرسل عبر التاريخ، ومن ذلك: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلٰغُ الْمُبِينُ ١٧﴾ «يس»، ويأتيهم الردّ في كل مرّة: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلَيْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١١﴾ «إبراهيم».

• النبي شعيب وقومه:

ونجد مثل هذا الموقف المتقلب في قصة النبي شعيب «عليه السلام» أيضاً، حيث كانوا يعتبرونه حليماً رشيداً، حتى إذا دعاهم إلى توحيد الله وتجنب التطفيف والغش في تجارتهم انقلب موقفهم: ﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ ﴿٨٧﴾ «هود».

وهكذا صار شعيب «عليه السلام» عندهم متهماً بالسعي وراء مصالحه الشخصية والتستر خلف دعوة الإصلاح العقدي، والإصلاح التجاري: ﴿قَالَ يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿٨٨﴾ «هود».

ووصل بهم الأمر في مواجهته إلى حد التهديد باستعمال العنف معه لإيقاف حركته الإصلاحية، وما منعهم عن الإقدام على ذلك إلا منعه بعشيرته: ﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرْنَكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ ﴿٩١﴾ «هود».

• سنة اجتماعية تاريخية:

لقد سِيَقَتْ قصة النبيّين صالح وشعيب «عليهما السلام» بهذه التفاصيل لبيان أن الوضع الذي واجهه النبي «صلى الله عليه وآله» في دعوته ليس بالأمر الفريد، بل هو الوضع الطبيعي، وهي السنة الاجتماعية التاريخية المتوقعة حين يتحوّل الصالحون من موقع الصلاح على المستوى الشخصي إلى موقع الإصلاح على المستوى الاجتماعي باختلاف دوائره.

وهذا ما عبّر عنه الشهيد السيد محمد باقر الصدر حين ذكر أن أكثر الناس يحبون الرجل صالحاً ويكرهونه مصلحاً! فتجدهم يُحِبُّون الصالحين ويعادون المصلحين. لقد أحبّ أهل مكة محمداً قبل البعثة لأنه كان صالحاً؛ ولكن لما بعثه الله «تعالى» وصار مصلحاً عادوه، وقالوا ساحر، كذاب، مجنون. السبب، لأن المصلح يصطدم بصخرة أهوائهم ورغباتهم. ومثل هذه المواجهة مع الإصلاح الصادق موقف خطير قد يجرّ إلى نتائج وخيمة جداً، وأكّدت على ذلك سورة هود بعد عرض قصص عدة من الأنبياء ومن بينهم النبيّين صالح وشعيب، مع التأسّف للموقف السلبي لكثير من الأمم

في مثل هذه الحالات، حيث لم يَنْجُ من النتائج الوخيمة -دنيوياً- إلا القليل الذين تحملوا مسئولياتهم: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿١١٦﴾ «هود».

وكان من الممكن تجنب هذه النتائج الوخيمة لو أنهم عملوا على إصلاح مواطن الفساد والإفساد عندهم، وتجاوبوا مع دعوات الإصلاح الصادقة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ «هود». ولنلاحظ أن الآية عبّرت بلفظ «مصلحون» ولم تعبّر بلفظ «صالحون». ثم إنها تحدثت عن أهل القرى، ولم تتحدث عن فئة محدودة كالرسل مثلاً، وهذا يعني أن المسؤولية جماعية وعامة.

وهذا يعني أن الهلاك يلحق الأمم التي استحكمت فيها الفساد إذا خلت من المصلحين، حتى لو تكاثرت فيها الصالحون على المستوى الشخصي: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿١١٨﴾ «الأعراف». لقد اعتبر الصالحون منهم أن الإصلاح مضيعة للوقت والجهد، بينما اعتبر

المُصلحون منهم أنهم ينطلقون من وحي المسؤولية الإلهية وما تفرضه الطبيعة البشرية من إمكانية التغير إلى الأحسن: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَهَجَيْتَ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ «الأعراف».

لقد نجت الفئة المصلحة فقط، وشمل العذاب البئس (الذين ظلموا) بفسادهم وبسكوتهم على الفساد مع صلاحهم على المستوى الشخصي!

وهكذا، أحبّ الناس الفقهاء الصالحين في أنفسهم، وأقبلوا عليهم، بينما رجموا - بكلماتهم ومواقفهم - المصلحين من الفقهاء وحاربوهم حال حياتهم!

• إصرار الحسين على الخروج:

ومن كل ما سبق، نفهم لماذا أصرّ الحسين «عليه السلام» على الخروج على الرغم من الدعوات المحذّرة من مغبة خيانة أهل الكوفة بحسب التجارب السابقة. وكل من يتساءل اليوم: لماذا خرج الحسين على الرغم من تحذيرات أخيه محمد بن الحنفية، وعبدالله بن عباس بن عبدالمطلب، وعبدالله بن عمر بن الخطاب، وعبدالله بن الزبير بن العوام، وعبدالله بن جعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن عمرو

بن العاص، وأبي سعيد الخدري، وهمام بن غالب - الفرزدق - فهو في الواقع لم يهضم هذا المفهوم القرآني الذي يُحْمَلُ أفراد المجتمع المسئولية الإلهية في مواجهة الفساد وإصلاحه، ما دام في البين احتمالٌ لذلك، وإلا فليتحمّل الصالحون السليبيون - ومعهم الفاسدون - مغبةً استحكام الفساد في مجتمعاتهم، فالمسألة ليست أن الحسين «عليه السلام» خُدع بوعود أهل الكوفة، بل أنه نهض وفق ظاهر المسئولية الإلهية الملقاة على عاتق الصالحين، فكانت شهادته وشهادة أنصاره نجاةً لهم، وكان تخاذل المتخاذلين عن التحرك ضد الفساد سبباً للحقوق العذاب الدنيوي بهم، إذ تسلط عليهم يزيد إلى المستوى الذي ارتكب معها جريمة فظيعة في المدينة المنورة في غضون سنتين، قُتل فيها صحابةٌ وتابعون وصالحون وأبرياء بالمئات، وهُتكت فيها الأعراض، وانتُهكت الحُرُمات، وسُلِبَت الأموال، واستبيحت المدينة للجيش الغازي على مدى ثلاثة أيام، وأخذت البيعة من أهلها على أنهم عبيد ليزيد، ثم انتُهكت حُرمة المسجد الحرام بمكة المكرمة، وضُربت الكعبة بالمنجنيق، وسُلِبَ الأمن من المتحصنين في الحرم المكي !

إن هذه القراءة للأحداث ليست - لا سمح الله - قراءة
الشامت الهازيء بمصير الصالحين والأبرياء، بل إنها
تصبّ في اتجاه التحذير والتذكير للمجتمعات على طول
التاريخ بأن لله «عز وجل» في حركة التاريخ والمجتمعات
سنناً علينا أن نقرأها بعينٍ فاحصة وبروح مسئولة لئلا نكرّر
أخطاء مَنْ سَبَقْنَا.



مُصَلِّحُونَ مُزَيِّفُونَ



الإنسان من الناحية التكوينية مخلوق حُرّ، يمكنه أن يختار لنفسه الفعل أو الترك، ولأنه حُرُّ تكويناً، فهو حُرُّ من الناحية التشريعية أيضاً، أي ليس لأي مخلوق أن يفرض عليه عبادته: ﴿.... وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ....﴾ ﴿٦٦﴾ «آل عمران».

نعم، الإنسان ليس حُرّاً تكويناً بالنظر إلى العلل والأسباب الكونية التي أوجدته، فهو لم يختار والديه، ولا صفاته الوراثية، ولا الزمن الذي وُلد فيه... إلخ.

كما أنه ليس حُرّاً تشريعاً بالنسبة إلى ما تقتضيه بعض مصالحه الشخصية وكذلك المصالح العامة، ولذا لا يحقّ له الإضرار بنفسه، كأن يقتل نفسه، أو أن يقتل عينه، أو يقطع يده.. ولا يحقّ له الإضرار بالآخرين، على مستوى الجسد، والمال والسّمة وغير ذلك، وعليه احترام القوانين المنظّمة للعلاقات البينيّة في المجتمع والالتزام بها.

وحيث أن الله «تعالى» هو الخالق لكل شيء، وهو المالك المطلق لكل شيء، وهو الذي يدير كل الوجود، لذا استوجب من الإنسان العبودية لله، والطاعة التامة له، والإيمان أنّ الأمور بيده، وأنّ توفيق الإنسان لتحقيق ما يريد راجع إلى الله مُوجد الأسباب «سبحانه»، وبيده تفعيلها وتعطيلها.

ولذا على الإنسان أن يتطلع إلى الله، ويتوكّل عليه، ويرجع إليه في أموره كلها، ويطلب منه التوفيق فيما يفعل وفيما يترك. وقد تجلت هذه المفاهيم عند بيان جانب من موقف النبي شعيب «عليه السلام» مع قومه: ﴿قَالَ يَقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي الحقيقة واضحة بالنسبة إليّ، في ما له علاقة بتوحيد الله، وكوني مرسلًا من عنده، وسائر الأمور التي أدعوكم إليها، أو أنهاكم عنها.

﴿..... وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۖ﴾ والمراد من الرزق الحسن هنا النبوة والعلم، فكما أن الله أعطاكم رزقاً مادياً وجعلكم أصحاب ثروات بفضل الموقع الجغرافي المتميز لمدينتكم، كذلك فقد أعطاني رزقاً ولكن من نوع آخر، وهو رزق حسن.

﴿..... وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنهَكُمُ عَنْهُ ۖ﴾ فأنا صادق في دعوتي، على مستوى الدوافع، وعلى مستوى التطبيق الشخصي لها، ليست لي غايات خفية، ولا مصالح شخصية من وراء حركتي هذه، لا أطلب الرئاسة عليكم، ولا تحصيل الثروة بنجاحي في هذه الدعوة.

وقد شهدنا خلال العقود القليلة الماضية بعض من يُطلقون على أنفسهم عنوان (المصلحين والدعاة) ممن ينجحون من خلال مهاراتهم وبعض العوامل المساعدة في تحقيق الشهرة الواسعة، ولا سيما من خلال الفضائيات ووسائل التواصل الاجتماعي والعالم الافتراضي، ثم ما تلبث أن تبدو عليهم مظاهر الغنى والرفاهية، أو حيازة عناوين الرئاسة المتعددة، ثم تأتي اللحظة التي تُسقط عنهم ورقة التوت لتتكشف من خلالها حقيقتهم الزائفة، أو تأتي

اللحظة التي ينقلبون فيها وتتهاوى فيها مصداقيتهم عندما يتبرأون من ماضيهم المليء بالشحن ضد هذا الطرف أو ذاك -وبعضهم قد جيش الناس للقتال في هذه الجبهة أو تلك- ثم تتبدى الحقيقة أن المسألة بالنسبة إليهم من وراء هذه الدعوات ليست سوى مسألة استرزاق، أو طلب للشهرة، أو اختيار العيش في القصور المشيدة، أو خدمة أجنات معينة، فيكون التأثير السلبي الأكبر على مَنْ انغَرَّ بهم، لا على مستوى الموقف السلبي من هذا الداعية المزيف أو ذاك، بل من خلال الردّة على الدين أو عموم الدعاة إلى الله «سبحانه» والعلماء، فعقد مثل هذه المقارنات على مستوى النماذج الواقعية تُحطّم صورة التدين، وقد تدفع البعض -ولاسيّما من طبقة الشباب- إلى الإلحاد أو اللادينية.

ومثل هذه المقارنات التي تُعقد في أجواء ما يُعرف اليوم بصراع النماذج الذي أعقب صراع الأفكار والنظريات، يمثل تحدياً كبيراً يواجهنا كمسلمين غارقين في صراعات طائفية نجتُرُّ من خلالها أحداث التاريخ، ونساق وراء حماقات دعاة الفضائيات، وإثارات الإعلاميين المأجورين، ومخططات رجال الاستخبارات، لتتحول إلى منابر يُكفّر من خلالها

المسلمون بعضهم البعض، وإلى رصاصات يمزقون بها أجساد بعضهم البعض، وإلى صواريخ تُقجّر بها الجامعات والمدارس المتهالكة أصلاً، وإلى انتحاريين مهووسين بتحويل الأطفال والنساء إلى أشلاء، وإلى ساديين يستلذّون بنحيب الأرامل ودموع الثكالى ومشاهد النار والدمار.

أمثال هؤلاء من (المصلحين) المزيفين إنما تنطلق مشكلتهم أحياناً من الخلل الباطني المتمثّل في فقدانهم روحانية العلم ورسالته، أو في تداخل شراسة النفس مع البحث العلمي، أو في غلبة الأهواء على النوايا، أو التعصّب الأعمى، وهو ما يعرضهم إلى السقوط المدوّي في منعطفات الحياة ومساراتها الملتوية.. وهو ما يؤكد على أهمية الطهارة الروحية في طريق طلب العلم وبحثه، وأن لا يكون تقييمنا لحملة العلم من خلال الانبهار بمقدار ما يملكون من معرفة، أو أسلوب بيان، بل بمقدار مصداقيّتهم أيضاً.

وقد تكون مشكلتهم أحياناً ضعف المعرفة الدينيّة والسطحيّة على مستوى المعلومات، والاعتماد على الأسلوب الاستعراضى والبهرجة الإعلامية والتركيز على العناوين المعاصرة والجوانب الحياتية والمشكلات اليومية في النجاح

للوصول إلى عشرات الآلاف من البسطاء الذين يبحثون عن خطاب ديني يُلامس واقعهم، ويعالج مشاكلهم، الأمر الذي سيخلق حالة من الفوضى الفكرية عند المسلمين نتيجة ذلك الطّرح غير المتّزن، أو الذي لا يستند إلى معرفة حقيقية، ولربما يصنع شخصيات معقّدة أو حاقدة أو متطرّفة تدمّر ما تبقى من مواطن القوة في الأمة بكل أنواع التدمير المادي والمعنوي والقيمي، دون ورع ولا تدبّر، بل وبما يحقّق ما عجزت عن تحقيقه يد الاستكبار والصهيونية طوال عقود من الزمن.

• خلل متكرّر:

ويبدو أنه لم يخلُ زمان من مثل هذا النموذج للمصلحين المزيّفين، ولذا فإنّ النبي شعيب يؤكّد لقومه أنه ليس منهم، وينفي التهمة عنهم، وهو ما يجب أن نحذر منه على الدوام، ولا تكون الشهرة والجاذبية العامل الوحيد في تصديقهم والأخذ عنهم، بل لابد من التأكد من مصداقيتهم، لاسيما وأن سقوطهم قد يتبعه سقوط قيمة الدين والمصلحين في أعين الناس.

﴿.... إِنَّ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ...﴾ ﴿٨٨﴾ مجيء

الاستثناء في سياق النفي يفيد الحصر، أي لا غاية لي إلا الإصلاح قدر استطاعتي.

﴿.... وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ...﴾ بعد أن أثبت النبي شعيب «عليه السلام» لنفسه من خلال الكلام السابق الاستطاعة والقدرة، وحيث أنه ليست للعبد باستقلاله استطاعة دون الله «سبحانه»، لذا فقد أتم النبي شعيب ما في كلامه من النقص والقصور بقوله: ﴿.... وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ...﴾، أي أن إرادتي وقدرتي من عند الله «سبحانه»، ولذا فلا غنى عنه، ولا استقلال في أمر دونه. ومرة أخرى جاءت العبارة بصيغة الاستثناء في سياق النفي للدلالة على حصر التوفيق بالله.

﴿.... عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ «هود». ولأن توفيقه بالله فحسب، لذا فإن النتيجة الطبيعية هي أن يكون توكُّله وإنابته إلى الله وحده، وهذا ما يدل عليه تقديم الجار والمجرور على الفعل.

مصادر الكتاب

١. القرآن الكريم
٢. الكتاب المقدس
٣. الصحيفة السجادية
٤. الاحتجاج: أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي
٥. الإمامة والسياسة: عبد الله ابن قتيبة الدينوري
٦. بحار الأنوار: محمد باقر المجلسي
٧. البداية والنهاية: إسماعيل بن عمر ابن كثير
٨. تاريخ الإسلام: حسن إبراهيم حسن
٩. تاريخ الدولة العربية: يوليوس ولهاوزن
١٠. التحرير والتنوير: محمد الطاهر ابن عاشور
١١. تمام نهج البلاغة: صادق الموسوي
١٢. تهذيب التهذيب: أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني
١٣. ثرة الحسين: محمد مهدي شمس الدين
١٤. الحكمة المتعالية: محمد صدر الدين الشيرازي
١٥. ديوان المبتدأ والخبر: عبد الرحمن ابن خلدون
١٦. شرح نهج البلاغة: عبد الحميد ابن أبي الحديد

١٧. الشورى والديمقراطية: عبد السلام ياسين
١٨. صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري
١٩. صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج النيسابوري
٢٠. صحيفة الشرق الأوسط
٢١. صحيفة المدينة السعودية
٢٢. عمدة القاري: محمود بن أحمد بدر الدين العيني
٢٣. الفارات: إبراهيم بن محمد الثقفي
٢٤. غرر الحكم: عبد الواحد بن محمد التميمي
٢٥. فتح المغيث: عبد الباقي بن قانع الخطيب البغدادي
٢٦. الفتنة الكبرى: طه حسين
٢٧. الفصول المهمة: علي بن محمد ابن الصباغ المالكي
٢٨. اللهوف في قتلى الطفوف: علي بن موسى ابن طاوس
٢٩. مجمع الزوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي
٣٠. المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني
٣١. المغني عن حمل الأسفار: عبد الرحيم بن الحسين
٣٢. المفردات: الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني
٣٣. المقدمة: عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون

٣٤. مكارم الأخلاق: الحسن بن الفضل الطبرسي
٣٥. المنتظم: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي
٣٦. موارد الظمآن: عبد العزيز بن محمد السلطان
٣٧. الميزان في تفسير القرآن: محمد حسين الطباطبائي
٣٨. نهج البلاغة: محمد بن الحسين الشريف الرضي
٣٩. وسائل الشيعة: محمد بن الحسن الحر العاملي

1. www.almaany.com
2. www.fikercenter.com